ملخص محاضرات الالكترونية

المرحلة الرابعة

المادة عباسي متاخر

مـــــدرس المـــــادة: ا.د .رشـــــــيد لطيـــف ابـــراهيم الحشماوي

2024 / 2023

((المحاضرة الاولى))

حقبة التسلط البويهي (334 ـ 447 هـ)

اولا : مراحل ظهور البويهيين على الساحة السياسية.

قبل الخوض في ظهور البويهيين علينا ان نعرف أصول البويهيين التي انحدروا منها , فيقال أنهم من أصول الديلم ,والديلم تشغل بلاد الجبل و بلاد جيلان و طبرستان والري وجرجان ,وينحدر سكان بلاد الديلم من منطقتين الأولى الاستانية ويسكنوا الجبال والثانية اللانجية ويسكنوا في مناطق الصحراء والمناطق السهلية ,وكان أهل بلاد الدبلم يتميزون بمميزات فريدة من نوعها, ذكرها صاحب حدود العالم من المشرق إلى المغرب وقال بان "أهلها مقاتلون يقاتلون بالتروس والمزاريق، ذو أخلاق حسنة, ترتفع منها الثياب الإبريسم ذات اللون الواحد والملونة كالحرير والمبرم وما شابه ذلك, كما يرتفع منها الكتان وما شابهه بكثرة وكانت ديانتهم الشائعة والمعروفة الديانة الزرادشتية الفارسية القديمة والديانة الوثنية العربية القديمة والمسيحية المنتشرة في العالم الاوربي,وبذلك يكون هذا المجتمع خليط من مجتمعات وديانات متعددة.

و يرجح بعض المؤرخين انهم ينتسبون إلى بهرام جور، أحد ملوك ساسان، ويرفع آخرون نسبهم إلى آلهة المجوس، بل إن منهم من ينسبهم إلى العرب، من بني ضبَّة, ولكن الراجح أنهم كانوا من أسرة ديلمية فقيرة، كان والدهم بويه يتعيش من صيد الأسماك, وجاءت هذه الأسرة من بلاد الديلم

ومن صفاتهم الأخرى كان لهما احترام عالي للنساء ,وكانت النساء تشاركهم في حرية الرأي حتى ان ابن مسكوية (ت:421 هـ) وصف نسائهم وقال "وكنّ يجرين مجرى الرجال في قوة الحزم وأصالة الرأي والمشاركة في التدبير فيما وصفه صاحب حدود العالم من المشرق الى المغرب وقال "وكور الديلم هذه عامرة ذات تجارات، وجميع أهلها إما جنود أو مزارعون، كما أن نساءهم أيضا يمارسن الزراعة. وليس لديهم مدينة لها منبر".

وبذلك تميزوا بصفات عن باقي الاقوام بأنهم ذوات أجساد قوية يستطيعون السير ليلا في أماكن غير مأهولة بالسكان.

ثانيا :انتشار الإسلام في بلاد الديلم

لم يدخل بلاد الديلم لإسلام في بدايات الدعوة الإسلامية, وتصدوا بقوة للفتوحات العربية الإسلامية وتمسكوا تمسكاً قوياً بالديانة المجوسية,ويقال ان الصحابي الجليل سعيد بن العاص(رض الله عنه) صالحهم سنة 30 هـ اذ قدم الى "أهل جرجان وكانوا يجبون أحيانا مائة ألف درهم ويقولون هذا صلحنا وأحيانا مائتي ألف درهم وأحيانا ثلاثمائة ألف درهم وكانوا ربما أعطوا ذلك وربما منعوه ثم امتنعوا وكفروا فلم يعطوا خراجا حتى أتاهم يزيد بن المهلب فلم يعازه أحد حين قدمها فلما صالح صول وفتح البحيرة ودهستان وصالح أهل جرجان على صلح سعيد بن العاص" ,وقيل"امتنعوا وكفروا فلم يأت جرجان بعد سعيد أحد ومنعوا ذلك الطريق فلم يكن يسلك طريق خراسان من ناحيته أحد إلا على وجل وخوف من أهل جرجان,كان الطريق إلى خراسان من فارس إلى كرمان فأول من صير الطريق من قومس قتيبة بن مسلم الباهلي حين والي خراسان" .

وبذلك لم تستجيب بلاد الديلم للإسلام في بداية الامر,حتى قيل انهم افشلوا أكثر من اثني عشر هجوما من المسلمين قبل بداية القرن الثالث الهجري, بل ويمكن القول انهم قطعوا الطريق أمام المارة في ذلك الوقت لما كانوا يتميزون به من قوة بدنية عالية بالإضافة إلى الطبيعة الجغرافية المعقدة الموجودة في المنطقة .

وبعدما جاءت الخلافة الأموية سنة 41 هـ وانطلقت الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا, فكر الخلفاء الأمويين بنشر الدين الإسلامي في بلاد الديلم فقد

أرسل الخليفة سليمان بن عبد الملك (96 ـ 99 هـ) القائد العربي يزِيد بن الْمُهلب إلى جرجان , "ولم تك يومئذ مدينة أنما هي جبال. . . . فنزل البحيرة, جزيرة في البحر. ـ ـ في ثلاثين ألفا فدخلها يزيد وأصاب أموالا ثم خرج إِلى البحيرة فحاصر صولا فكان صول يخرج في الأَيام فيقاتلهم فمكثوا كذلك أشهرا وانصرف عنهم في شهر رمضان. . .و صالحهم يزيد على خمس مائة ألف درهم يؤدونها فِي كل عام" .

وعندما انتهت الخلافة الأموية وجاءت الخلافة العباسية فكر الديلم بالاستقلال, وعدم دفع الجزية للخلافة العباسية,ولكن الخليفة العباسي الثاني ابي جعفر المنصور (136 ـ 158) ندب سنة 144 هـ ابن اخيه محمد ابن ابي العباس ابن عبد الله لحربهم فجهز جيش من"أهل الكوفة والبصرة و واسط والموصل والجزيرة " .

وفي عهد الخليفة هارون الرشد (170 ـ 193 هـ) ظهر أول خبر ليحيى بن عبد الله بن حسن سنة 176 هـ في بلاد الديلم واشتدت شوكته وقوي أمره ونزع إليه الناس من الأمصار والكور فاغتم لذلك الرشيد فندب إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل ومعه صناديد القواد وولاة كور الجبال والري وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان وحملت معه الأموال وراسل يحيى للموافقة على الصلح واشترط على ان يكتب له الرشيد أمانا بخطه على نسخة يبعث بها إليه فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسره وعظم موقعه عنده وكتب أمانا ليحيى بن عبد الله وأشهد عليه الفقهاء والقضاء وجلة بني هاشم ومشايخهم منهم

وما ان انتهي العصر العباسي الأول حتى بداء يدب الضعف والوهن في صفوف الخلافة العباسية, وظهرت حركات المعارضة في بعض أمصار البلدان الإسلامية, ففي سنة 250 هـ خرج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب الى بلاد الديلم ودعاء إلى المذهب العلوي الذي انتشر انتشارا واسعا,وكان يلقب بالداعي الى الحق "واحتل آمل وساري والري وجرجان وقومس هازماً بني طاهر ثم توفى سنة 270هـ, واستمرت تلك الدولة 95 عاماً من 250-345هـ". .

ظهر العلويون في بلاد الديلم وجيلان بصورة واضحة بقيادة الحسن بن علي بن الحسن بن زيد بن عمر بن الحسين بن علي الملقب بالناصر

الكبير (230. 304هـ) وعرف باسم الأطروش ، فقد هاجر هذا الإمام إلى هناك داعياً إلى الإسلام على مقتضى المذهب الزيدي فدخل فيه خلقا كثيرا صاروا زيديين ابتداء من ذلك الوقت .

((المحاضرة الثانية))

ثالثا : نهاية الأمارة العلوية وعلاقتها بظهور البويهيين:

ابتداء امر بني بويه بالظهور في بدايات القرن الرابع الهجري, وكان بويه رجلاً متوسط الحال من الديلم، وكنيته أبي شجاع، ولما عظمت مملكة بني بويه واشتهر نسبهم،قالوا ان نسبهم بويه بن فنا خسرو.

وكان لبويه المذكور ثلاثة أولاد، وهما أبو الحسن علي،والحسن،وأبوالحسين أحمد، وهما أولاد بويه بن فناخسرو.

وما انتهت الامارة العلوية حتى نشبت مناحرات ومشاجرات عديدة بين قادة الأمارة فأصبحت قطعات الجيش والمدن مقسمة إلى عدة أقسام يحارب أحداهما الأخر من اجل التفرد بالقيادة ومنها:

1 ـ سرخاب بن وهسوذان ابن عم ماكان بن كالي الديلمي,وكان صاحب جيش ابي الحسن الاطروش وكان والي اصفهان من قبل الاطروش .

2- ليلى بن نعمان الديلمي ,والي جرجان قتل سنة 310 هـ وقيل سنة 309 هـ

3 ـ أسفار بن شيرويه,قتله مردويج سنه 310 هـ

4 ـ مرداويج بن زيار.

5 ـ ماكان بن كاكي الديلمي،والي مدينة استراباذ ,وقيل اسم أبيه كالي.

وكان أولاد بويه الثلاثة(على , الحسن , احمد) من جملة عسكر ماكان، وكان أبناء بويه مفضلين عنده لما يتمتع هؤلاء بمهارات عسكرية فريدة من نوعها.

خاض مرداويج معارك كثيرة ضد ماكان فاستولى مرداويج على ما بيد ماكان بن كاكي من طبرستان، وسار ماكان من طبرستان، واستولى على

الدامغان، ثم انهزم ماكان بن كاكي وعاد إلى نيسابور مهزوماً، وأولاد بويه المذكورون معه لا يفارقونه، فلما رأوا ضعفه وعجزه عن مقاتلة مرداويج قالوا: نحن معنا جماعة، وأنت مضيق، والأصلح أن نفارقك لنخف المؤنة عنك، فإذا صلح أمرك، عدنا إليك، فأذن لهم ففارقوه ولحقوا بمرداويج، وتبعهم في ذلك جماعة من قواد ماكان .

وبذلك يكون ماكان قد أخطأ كثيرا عندما سمح لبني بويه بترك قطعات جيشه والالتحاق بمردويج فهو عزز جيش مردويج بقادة يتميزون بممزات قيادية فريدة من نوعها من جهه وساهم من جهة ثانية بأضعاف جيشه عندما فقد ماكان ابرز قادة جيشه وهما بني بويه.

أحسن مرداويج الى أبناء بني بويه , وقلد علي بن بويه على مدينة الكرج، ولما استقر علي في الكرج، ندم مرداويج على ذلك القرار, وحاول ان يوقع علي بن بويه في مازق عندما ارسل اليه بعض قواده , كي يستلما أموالا منه، فلما وصلوا لقبض المال أحسن إليهم علي بن بويه، واستمالهم فمالوا إليه، حتى أوجبوا طاعته, وبلغ ذلك مرداويج، فاستوحش من ابن بويه، ثم قصد ابن بويه المذكور أصفهان وبها ابن ياقوت، فاقتتلوا فانهزم ابن ياقوت واستولى ابن بويه على أصفهان وكان اصحاب ابن بويه تسع مائة رجل، وعسكر ابن ياقوت في عشرة آلاف رجل، فلما هزم علي بتسع مائة،عظم في عيون الناس وقويت هيبته، وبقي مرداويج يراسل ابن بويه، ويستدعيه بالملاطفة، وابن بويه يعتذر ولا يحضر إليه، وأقام ابن بويه بأصفهان .

((المحاضرة الثالثة))

ثالثا:أعمال البويهيين ضد الخلافة العباسية

1 ــ الأعمال المناهضة للدين الإسلامي:

نعلم ان الدين الإسلامي لم ينتشر في تلك البلدان ـ الديلم ـ الا بعد سنة 250 هـ وهذا يدل على تمسكهم العالي بديانتهم القديمة المنتشرة في تلك البلدان,هذا بالإضافة إلى ان الدين الإسلامي لم يمضى على نشره في تلك البلدان سوى 85 سنة,

هذه الأسباب وأسباب أخرى جعلت قادته يتصرفون تصرف خارج عن مبادئ الدين الإسلامي عند دخولهم بغداد, وتفرض تلك الممارسات بالقوة على المجتمعات الإسلامية ومنها:

أ ـ ادخل البويهيون عادات وتقاليد لم يشرعها الدين الإسلامي ومنها تقبيل الأرض بين يدي الخلفاء والامراء ,فهي عادة لم يشرعها الدين الإسلامي ولم تكن موجود لا في المجتمعات العربية القديمة ولا في الشرع الإسلامي , ولكن كانت متداولة في المجتمعات الفارسية القديمة ,والتي سعي البويهيون إلى إحياء تلك العادة الفارسية القديمة, كما وتساهل البويهيون مع رجل ادعي الربوبية في سنة 340 هـ.

ب ـ اظهر البويهييون تعاطفا كبيرا مع عقيدة التناسخ فقد قيل ان "'في ببغداد رجل ادعى أن أرواح الأنبياء والصديقين تنتقل إليه" وقد تركوه من دون عقاب, وهي ذات جذور فارسية .

ج ـ اظهار الزندقة, ظهرت الزندقة بصورة علنية في عهد التسلط البويهي , في سنة 341 هـ ظهر شاب يزعم أن روح علي انتقلت إليه، وامرأته تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها، وآخر يدعي أنه جبريل، فتحايلوا بالانتماء إلى أهل البيت، فأمر معز الدولة بإطلاقهم.

وهذه الامور مخالفة لمبادئ الدين الإسلامي , الذي وقف ضد عقيدة التناسخ.

دـ أثارة الفتن الطائفية: ظهرت الفتن الطائفية في بغداد بصورة جلية بعد ان غذى البويهييون أصول هذه الطوائف دون ان يعلم احدهما ما يحدث على الساحة متصورا ان البويهيين معه في تلك الأحداث, اذ حدثت فتن في السنوات 338 ,348 ,349, 354 , 355 , 381 وجرت معارك طائفية بين أهل الكرخ والرصافة.

وصف ابن الاثير (ت: 630 هـ) هذه الفتن وقال :"كثرت الفتن بين العامة ببغداد وزالت هيبة السلطنة وتكرر الحريق في المحال واستمر الفساد" .

ووصفهم مرة أخرى وقال "تجددت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم واشتد الحال" .

هـ ـ رفع البويهيون الشعار العلوي, وتستروا به وجعلوه أشبه بالدستور لهم , فيما هم ابعد ما يمكن لهذا الشعار,فقد اعتقل عضد الدولة الرجل العلوي محمد بن عمر بن يحيى.

و ـ جعل البويهيون الزنا مهنة وقد فرض عليه بعض الضرائب دون ان يحرمه او يمنعه.

زـ ادعى رجل في حقبة التسلط البويهي الربوبية ,حيث كما يقول ابن الاثير ان رجل في سنة 340 هـ " يدعي أن روح أبي جعفر محمد بن علي بن أبي القراقر قد حلت فيه وأنه خلف مالا كثيرا كان يجيبه من هذه الطائفة وأن له أصحابا يعتقدون ألربوبيته وأن أرواح الأنبياء والصديقين حلت فيهم" , وكان البويهيون يتساهلون مع تلك الادعات.

فالربوبية شرك عظيم نهي عنه القران الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

2 ـ الأعمال المناهضة للخلفاء وعامة الشعب.

أـ استخدم بني بويه أساليب كثيرة ضد الخلفاء العباسيين منها منع الخليفة العباسي من التصرف بكافة أموال الخلافة وجعل له راتباً شهرياً, و سحب كافة الصلاحيات من تعيين الوزراء والكتاب وولاية العهد وجعلها مناطة بالامير البويهي, كما وأصبح توقيع المواثيق والعهود بين الخلافة وأي جهة أخرى توقع بدون علم الخليفة .

وبذلك يكون قد سحبت كافة الصلاحيات التي كان يمارسها الخليفة قبل دخول البويهيين.

فقد سعى بنو بويه الى اذلال الخلفاء العباسيين بصورة مباشرة فلم يمضى اكثر من أربعين يوماً حتى استخدم البويهيين اسلوب يندا له جبين الإنسانية فقد قامت حاشية بني بويه وبحضرة " صاحب خراسان ومعز الدولة جالس ثم حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفي بالله فظن أنهما يريدان تقبيلها فمدها إليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته في حلقه ونهض معز الدولة واضطرب الناس ونهبت الأموال وساق الديلمان المستكفي بالله ماشيا إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي وأخذت علم القهرمانة فقطع لسانها, وكانت مدة خلافة المستكفي سنة وأحدة وأربعة أشهر وما زال مغلوبا على أمره مع توزون وابن شيرزاد ولما بويع المطيع لله سلم إليه المستكفي فسمله وأعماه وبقي محبوسا إلى أن مات في رب[1]يع الأول سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة".

وبعد ان عزل الخليفة المستكفي بالله جاء البويهيون بالخليفة المطيع لله (334ـ363هـ) الى سدة الحكم , فعند دراسة حياة الخليفة المطيع نجد ان هنالك وقفات كثيرة استخدمها البويهيين ضد الخليفة المطيع منها انهم في سنة 336 هـ قاموا "بقطع عن الخليفة الألفي درهم التي كان يقدمها له في كل يوم لنفقته، وعوضه عنها ضياعا من ضياع البصرة" , ولم تقف الاستهانة واذلال الخليفة عند هذا الحد بل يقول ابن تغري بردي ان السلطان البويهي بختيار عز الدولة "بعث إلى الخليفة وطلب إسعافه على قتال الروم, فباع الخليفة المطيع ثيابه وأنقاض داره من ساج ورصاص" .

واذا كان ذلك يدل على شيء انما يدل على الاستهانة في شخصية الخليفة من جهة ومن جهة ثانية سهام البويهيين في اضعاف خزينة الخلافة العباسية وذلك من خلال البذخ المتتالي من قبل البويهيين .

وقد خلع نفسه الخليفة المطيع سنة 363 هـ غير مكره من قبل البويهيين ,وقد يكون واحد من اسباب خلع نفسه هو استهانة البوبهيين به .

جاء بعده ابنة الطائع لله وقُطعت الخطبة له سنة أربع وستين وثلاثمائة في بغداد خمسين يوما فلم تخطب لأحد.

وقد شارك السلطان البويهي الخليفة العباسي في شارات الخلافة فقد كان له الدعاء بعد الخليفة في الخطبة بعد ان كانت للخليفة فقط ,كما وضربت أسماؤهم وألقابهم على السكة بعد ان كانت للخليفة فقط.

ب ـ غذي البويهييون بعض فئات المجتمع ضد فئة أخرى وذلك للقضاء على المقاومة ضدهم, وتوهم بعض فئات المجتمع بانهم معه ,ولكن الذي حصل في المحصلة النهائية اقتتال طائفي بين فئات المجتمع شوه العقيد الإسلامية وساهم في إضعاف تماسك المجتمع الإسلامي وحدثت مشاكل كثيرة حيث وصف هذه المشاكل ابن الاثير وقال في سنة 400 هـ "وقع حريق بالكرخ ببغداد فاحترق فيها مواضع كثيرة هلك فيها خلق كثير من الناس وبقي الحريق اسبوعا " ,وبالتالي نجح البويهيين نوعا ما في إضعاف المقاومة العربية الإسلامية ضدهم.

ج ــ احتل البويهييون منازل عامة تعود لافراد في بغداد دون اي مسوغ عرفي و قانوني" ونزل الديلم والأتراك دور الناس، ولم يكن يعرف ببغداد قبل هذا التنزل" .

د ـ ظهور واضح وعلني لسب اصحاب رسول الله(صلى الله عليه وسلم) على المرافق العامة وعلى جدران المساجد.

((المحاضرة الرابعة))

رابعا: اسباب ضعف وانحلال التسلط البويهي

ما بعد الكمال الا النقصان, وغالبا للنقصان أسباب كثيرة ومتداخلة , فالتسلط البويهي بدء يمر بالنقصان والتهافت بعد ان سيطر على مفاصل الخلافة العربية الإسلامية ومن ابرز أسباب ضعفه وانحلاله السلطة البويهية هي :

1 ـ الصراع الأسري

بدأ الصراع يدب في مفاصل التسلط البويهي ففي سنة 357 هـ تمرد حبشي بن معز الدولة على أخيه عز الدولة بختيار عندما خلفه ابيه على بغداد ,وتمكن أخوه بختيار من قمع ذلك التمرد وأودعه السجن ولم يطلقه من السجن الا بشفاعة عمه ركن الدولة.

وتمـرد عضـــد الدولـة بـن ركـن الدولـة حـاكم شـيراز فـي عهـد ابيـه علـى ابـن عمـه عـز الدولـة بختيـار سـنة 364 هـ , عنـدما طمـع عضـد الدولـة فـي بغـداد وقـرر احتلالهـا , ولمـا تطـور الأمـر هـدد ركـن الدولـة ابنـه ممـا ادى الـى انهـاء تهديداتـه لبغـداد وبالتـالي قـرر عضـد الدولـة الـرجوع الـى شـيراز تاركـا بغـداد لابن عمه.

ولمـا توفـى السـلطان البويهـي ركـن الدولـة سـنة 366 هـ جـاء بعـده الـى سـدة الحكـم ابنـه عضـد الدولـة ,فكـان هنالـك عـداء بيـن عضـد الدولـة وبيـن ابـن عمـه عـز الدولـة بختيـار الـذي كـان يحكـم بغـداد ,فتقـدم عضـد الدولـة سـنة 367 هـ إلـى بغـداد لمحاربـة ابـن عمـه عـز الدولـة بختيـار و بالفعـل تـم قتلـه علـى يـد بـن عمـة عضـد الدولـة بعـد معـارك داميـة فـي العـراق, وتعمـق الانشـقاق بيـن عضـد الدولة واخويه مؤيد الدولة وفخر الدولة.

بعـد وفـاة عضـد الدولـة سـنة 373 هـ زداد الصـراع بيـن أولاده الثلاثـة صمصـام الدولـة وشـرف الدولـة وبهـاء الدولـة, وعنـد وفـاة عضـد الدولـة سـنة 373 هـ وصـل إلـى سـدة الحكـم صمصـام الدولـة وبقـي مقيمـاً فـي بغـداد فـترة ,ومـا إن حلـت سـنة 376 هـ حـتى سـيطر شـرف الدولـة علـى بغـداد واعتقل صمصام الدولة وأرسله إلى شيراز.

وفـي سـنة 379 هـ توفـى شـرف الدولـة وسـيطر علـى سـدة الحكـم اخـوه الثالـث بهـاء الدولـة ,فسـارع بعـض قـادة الجنـد بـإطلاق سـراح صمصـام الدولـة ,وبـدء الصـراع مـن جديـد بيـن صمصـام الدولـة وبيـن بهـاء الدولـة واسـتمرت بينهـم معارك كثيرة كان اخرها مقتل صمصام الدولة سنة 388 هـ .

اسـتمر الهـدوء فـي ظـل حكـم بهـاء الدولـة إلـى وفاتـه سـنة 403 هـ وبعـد ذلـك تـاجج الصـراع بيـن اولاد بهـاء الدولـة وهمـا سـلطان الدولـة والـذي حكـم مـن سـنة 403 هـ الـى سـنة 415 شـيراز, فيمـا كـان يحكـم جـلال الدولـة البصرة ,و حكم قوام الدولة كرمان ,وحكم مشرف الدولة بغداد.

وبـذلك يكـون الصـراع الاسـري قـد سـاهم مسـاهمة فعالـة فـي هـدم اركـان السـلطنة البويهيـة الـتي ادت فـي نهايـة المطـاف الـى تغلـب السـيطرة السـلجوقية الـذي سـيطر بعـد ذلـك علـى عاصـمة الخلافـة الإسـلامية بغـداد وإنهـاء سـيطرة دامت أكثر من قرن من الزمن .

2 ـ النظام الإقطاعي او ما يسمى التضمينات.

كان الجيش البويهي يتألف بصورة عامة من عنصرين هما الديالمة و الأتراك وهؤلاء وصلوا إلى مواقع رفيعة في حكومة السلطة البويهية ,وأصبح الجيش البويهي في نهاية حكم السلطة غير منضبط وغير منظم , وقام بثورات ومشاجرات كثيرة لذا لجأ البويهيون إلى إرضاء المتنفذين في الجيش البويهي ,حيث منحت لهم أقطاعات عسكرية كثيرة, ولم تحل هذه المشاكل وإنما زاد المشاكل الاقتصادية كثيرا ومن ابرز المشاكل:

1 ـ ظهور عدة طبقات في عهد التسلط البويهي.

2ـ أدي إلى ظهور النظام الإقطاعي .

3 ـ ساهم هذا النظام مساهمة فعالة في أضعاف الاقتصاد المحلي .

3 ـ السياسة المذهبية.

اتبع البويهيين سياسة جديدة بين أطياف المجتمع العراقي ,حيث اظهروا مساندتهم لطائفة ضد طائفة أخرى موهمين هذه الطوائف أنهم مع طائفة ضد طائفة أخرى ,وقد نجحوا في مصادمة الطوائف فيما بينهما .

وعندما علم أهالي بغداد بتلك المؤامرات تخلو عن مساندتهم مما ادى الى ضعف السلطة البويهية.

4 ـ التمردات العسكرية.

اعتمد البويهيين على عنصرين في قيام الجيش البويهي الا وهما العنصر الديلمي والعنصر التركي فبدأت تظهر التمردات منذ سنة 337 هـ حين تمرد اصفهدوست كبير قواد الديلم على ابن اختته معز الدولة البويهية,وتمرد سنة 345 هـ الأخوة الثلاثة روزبهان بن ونداد في العراق , وتمرد القائد بلك في شيراز ,واسفار في الاحواز ,وتمكن معز الدولة من افشال هذا التمردات,وأقدم معز الدولة على طرد جميع الديالم المؤيدين لتمرد واعتمد على الأتراك .

وبعد وفاة معز الدولة جاء بعده ابنه عز الدولة بختيار ليعزز ما فعله ابيه ضد الديلم فقام بمصادرة أموال الديلم مما أدى الى تمرد واسع من قبل صغار الديلم على عز الدولة بختيار وطالبوا من عز الدولة أطلاق الأموال وإعادة القادة الديلم المفصولين مما اضطر عز الدولة الى الاستجابة لأمرهم ولم يعالج المشكلة بل زاد الطين بلة حيث اعترض الاتراك على عودة الديلم

الى المراكز القيادية في الجيش,وحاول ان يعالج الموقف عز الدولة بختيار, فطلب من الديلم المساندة فقام الديلم بنهب وسلب اموال الاتراك يدفعهم الحقد الدفين ضد الاتراك,مما ادي الى نشوب تمرد تركي في سنة 363 هـ يقودها سبكتكين الحاجب حيث سيطر على بغداد وحرق دار السلطة البويهية واسر من فيها ونقلهم الى واسط,وعندما سار سبكتكين الى واسط توفى في الطريق , ثم تولي قيادة الجيش من بعده القائد الفتكين والذي الحق خسائر في جيش عز الدولة بختيار , واستنجد عز الدولة بابن عمه عضد الدولة وبعمران بن شاهين .

وشجع هذه التمردات على نزاع قوي قام بين عز الدولة وبين عضد الدولة ادي الى مقتل عز الدولة بختيار سنة367 هـ.

5ـ السياسة الاقليمية.

انحصر نفوذ البويهيين في العراق والري وفارس والاحواز ,ولم يدافعوا عن الخلافة العربية الإسلامية من قبل الدولة البيزنطية التي تعرضت للخلافة العربية اكثر من مرة تاركة الدفاع عنها للحمدانيين الذين تمركزوا في الموصل شمال العراق ,اما في الشرق فكان يدافع عن الخلافة العربية الإسلامية السامنيين والغزنويين من اي تعرض لهم .

لذا يمكن القول ان السلطة البويهية لم تغفل فقط عن الجهاد والفتح وإنما تركت حدودها مفتوحة على مصراعيها امام اي غزو خارجي ,وكان هدفهم الأول والأخير جمع المال والبقاء على السلطة اطول فترة ممكنة.

وبذلك تكون سياستهم قد أدت الى ضعف الجبهة الداخلية وقللت من مؤيدي التسلط البويهي,وبالتالي أدت الى ضعف وانحلال التسلط البويهي.

6 ـ انشطار او استقلال دول عن السلطة البويهية .

هنالك امارات انفصلت عن السلطة البويهية وساندت الخلافة العربية الإسلامية في بغداد مما ادي إلى ضعف السلطة البويهية وكان من أوائل تلك الدول او الامارات :

أـ الإمارة الغزنوية (351 هـ – 582 هـ) , نشطة الإمارة الغزنوية وساندة الخلافة العباسية, في سنة 384 هـ تمرد بعض قادة الجيش على الامير نوح السامانى,فطلب العون من أمير غزنة سبكتكين فانجده,ولما علم المتمردين بقدوم سبكتكين راسلوا فخر الدولة ابن ركن الدولة البويهي وطالبوا منه المساعدة وإسقاط الإمارة السامانية وبالفعل جهزهم بجيش

وصل أليهم ,وحدثت معركة خسر فيها الجيش البويهي المعركة وانهزم قادة التمرد.
وبعد وفاة سبكتكين 378 هـ تولى محمود الغزنوي وقد خطب للخليفة العباسي القادر بالله .
وبذلك يعد هذا الانفصال ضعفاً للبويهيين.
2 ـ الرغبة في انفصال الإمارة الحمدانية والمقاومة العربية في امارة البطائح ومقاومة بني مزيد وبني عقيل عن السلطة البويهية.
فهذه الإمارات ساهمت مساهمة فعالة في أضعاف السلطة البويهية .

7ـ سوء الأوضاع المالية والاقتصادية.

بعد إن تعرضت السلطة البويهية لهزات اقتصادية كثيرة لاسيما بعد إن سنت السلطة البويهية الضمانات والاقطاعات للقادة والأمراء والمقربين ,أصبح مردود السلطة ضعيف جدا فلجأت السلطة البويهية إلى مصادرة أموال الوزراء والقادة الذين يتم عزلهم مما أجبرهم إلى إخفاء أموالهم في أماكن غير معلومة حفاظا عليها عند عزلهم .
هذا الإجراء أدى إلى ضعف في خزانة الدولة وبالتالي ادى الى ضعف نفوذ السلطة البويهية.

((المحاضرة الخامسة))

مراحل ظهور السلاجقة على الساحة السياسية

أولا: أصل السلاجقة

وهم مجموعة من قبائل الاوغوز (الغز), وكانوا يسكنوا في سهل تركستان في الشتاء ثم يصيفون في بلاد البلغار ,وهم بصورة عامة يبحثون عن المراعي الجيدة والماء الوفير في تلك المناطق ,وقيل ينحدر السلاجقة من قبيلة قنق التركمانية، ونجتمع مع ثلاثة وعشرين قبيلة أخرى مجموعة القبائل التركمانية المعروفة بـ الغز ويسكنون في منطقة ما وراء النهر والتي نسميها اليوم بتركستان, والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبيرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك , ثم تحركت هذه

القبائل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي بالانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة.

أما أسباب تسميتهم بالسلاجقة فهي تعود إلى جدهم الاعلى سلجوق بن دقاق الذي كان يسمى بهذا الاسم

ثانياً :عائلتهم

المخطط التالي يوضح عائلة السلاجقة:

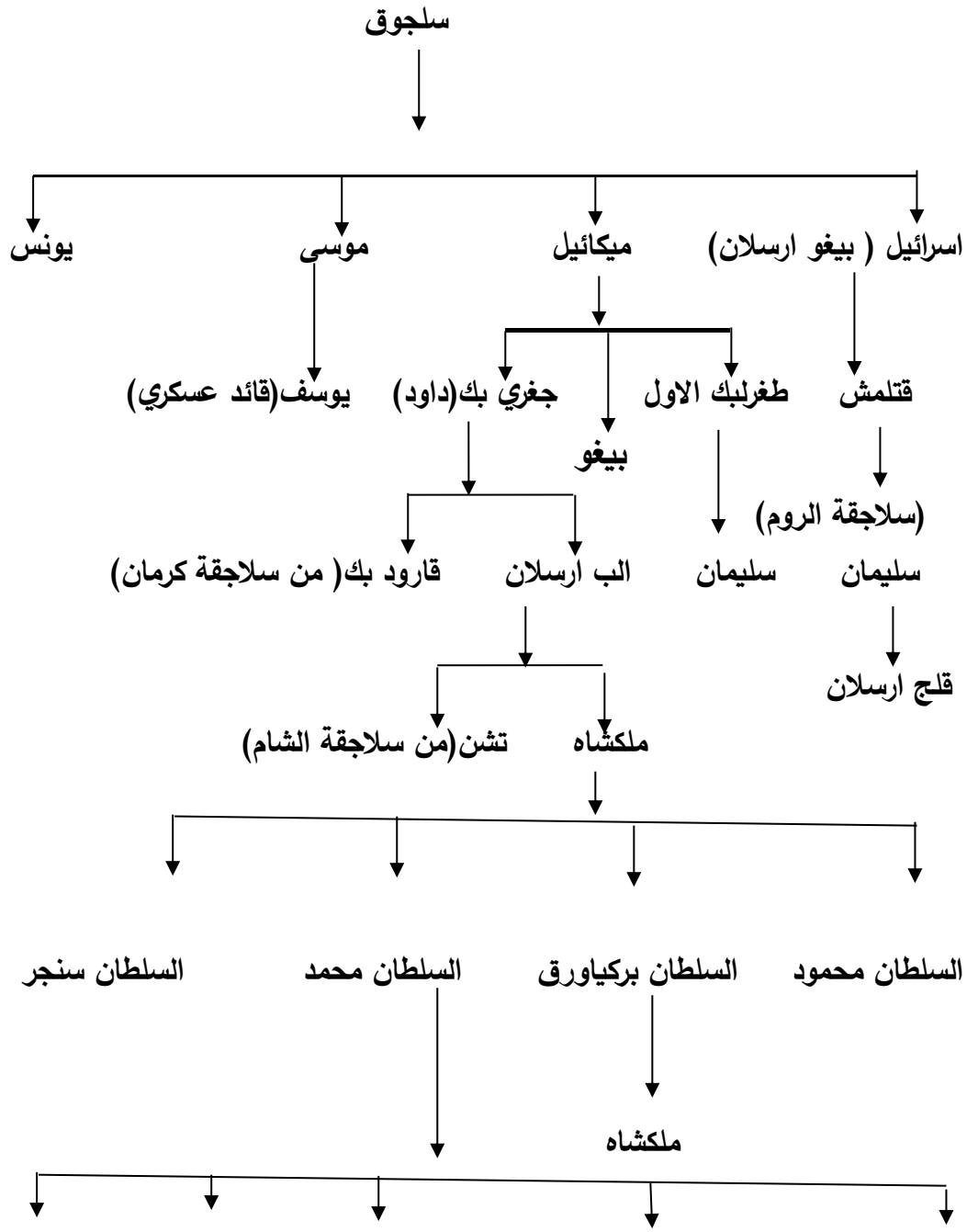

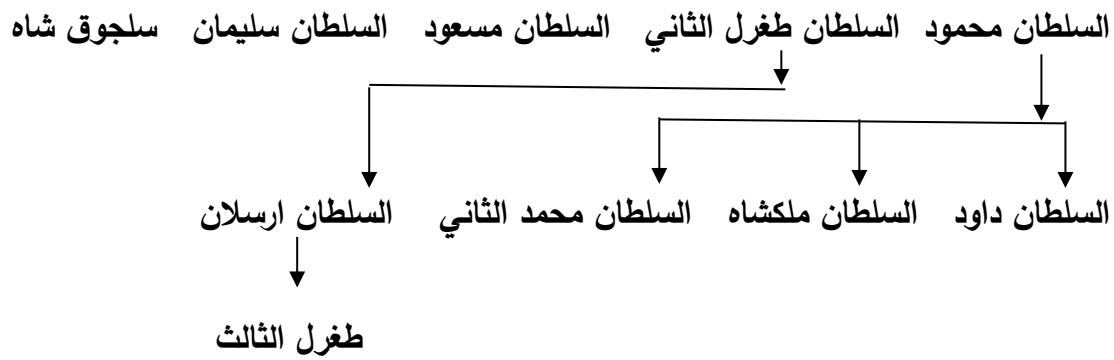

ثالثا :أسباب هجرتهم

من اهم الأسباب الرئيسية التي أسهمت في هجرة السلاجقة واستقرارهم في تركستان هي :

1ـ الاسباب اقتصادية, كان للقحط او الجدب دوراً رئيساً في هجرة اغلب العوائل السلجوقية من بلاد ما وراء النهر واستقرأرها في بلاد تركستان

2 ـ كثرة النسل، جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصلية، فهاجرت بحثاً عن الكلأ والمراعي والعيش الرغيد,حتى قيل ضيق مراعيهم في بلاد ما وراء النهر وزدحمت ديارهم,فيما قيل ان اسباب هجرتهم تكاثر القبائل وازدياد عدد افرادهم الى درجة تضيق بهم اماكن السكن مما دفع جزء منهم الى الهجرة برغبتهم[).

4 ـ تعرضت السلاجقة لضغوط كثيرة من قبائل أخرى مما اضطرهم إلى ترك أراضيهم، بحثاً عن الأمن والاستقرار ، واضطرت تلك القبائل المهاجرة الى أن تتجه غرباً، ونزلت بالقرب من شواطئ نهر جيحون ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان، وجرجان، فأصبحوا بالقرب من الأراضي الإسلامية التي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة 21هـ – 641م .

رابعا:انتشار الدين الإسلامي في بلاد ما وراء النهر.

أول من وصل إلى بلاد ما وراء النهر التابعي سعيد بن عثمان بن عفان (رض الله عنه) ويقول عن سعيد بن عثمان بن عفان المؤرخ موفق الدين(ت: 884 هـ) أول من قطع نهر بلخ من العرب , إلى ان جاء القائد قتيبة بن مسلم الباهلي وفتح اغلب مدن ماوراء النهر ووصل الى حدود الصين .

وعندما أقامت الدعوة العباسية السرية ارسل اسحاق الترك الى بلاد ما وراء النهر لينظم الدعوة العباسية ضد بني امية.

وبعد ان نجحت الخلافة العباسية اصبحت بلاد ماوراء النهر تابعة للخلافة وتنازعت الخلافة العباسية مع الصين على تلك المنطقة وحدثت معركة بينهم سميت معركة تلا س او طلاس سنة 133 هـ انتصر فيها الجيش العباسي على الجيش الصيني .

ويذكر المؤرخ ابن الوردي(ت: 749 هـ) دخل من الترك الاسلام سنة 435 هـ " خَمْسَة آلَاف خركاة وَلم يتَأَخَّر عَن الْإِسْلَام سوى الخطأ والتتر وهم بنواحي الصين" .

وكان السلاجقة تتردد على المناطق الحضرية في بلاد ما وراء النهر لتصريف منتجاتهم الزراعية المتمثلة بالصوف والوبر والمواشي والحليب, واخذ مواد غذائية وصناعية من بلاد ماوراء النهر(تركستان) ,وهذه العلاقات التجارية أدت إلى استقرار بعض عوائل سلجوقية في بلاد ماوراء النهر,كما وان بلاد ماوراء النهر كانت تابعة للامارة السامانية المسلمة فكانت لها تاثير اسلامي على العوائل السجوقية الساكنة في الامارة السامانية,لاسيما وان كان هنالك تشجيع قوي من الاماة السامنية لكل من دخل الاسلام واستوطن في تركستان.

فيما يقول طارق فتحي سلطان كان سلجوق دقاق له الفضل في تثبيت العقيد الاسلامية بين ابناء قبيلته.

وبذلك يكون السلاجقة حديثي الاسلام شانهم شان البويهيين سالفي الذكر.

خامسا : بدء ظهورهم على الساحة السياسية

السلاجقة هم من قبائل تركية من قبيلة قنق الغزية ,وكانت هذه القبيلة تسكن بين بحر خوارزم وبحر قزوين الى الجنوب من نهري سيحون وجيحون,اما تسمية السلاجقة فهي تعود الى جدهم سلجوق بن دقاق,

وكان سلجوق والقبائل المنطوية تحت حكمه تتنقل في بلاد ماوراء النهر او ما تسمى تركستان, من مكان الى اخر, بحثاً عن الماء والكلأ لمواشيهم ,وكانت تركستان خاضعة للإمارة السامانية (261 هـ/389 هـ) التي كانت عاصمتها بخارى .

وكان سلجوق بن دقاق يتميز بمميزات قيادية فريدة من نوعها, جعلت قبيلته تنال رضا الإمارة السامانية واغلب القبائل المجاورة لها .

وقف سلجوق بن دقاق مع الامارة السامانية سنة 375 هـ في حربها ضد الترك الكفار,مما سبب ود ورضا الأمارة السامانية حتى ان الامير الساماني لقب أميرهم بالقائد.

ويقال ان سلجوق بن دقاق قدم مساعدات عسكرية للسامانيين عندما غار هارون بن ايلك خان على بعض ممتلكاتهم .

واصبحت علاقة السلاجقة مع السامانيين جيدة,اذ سمح السامنيين للسلاجقة بعد تلك المساعدات عبورهم النهر واستقرأرهم عند شاطئ نهر سيحيون عند مدينة جندة في تركستان, وعندما اسقطت الامارة السامانية سنة 389 هـ , اصبحت بلاد ما وراء النهر تابعة للدولة القراخانية, وهنا ظهرت سياسة سلجوق بن دقاق حيث اظهر تعاون مع القراخانية الا ان القراخانية تجهال هذا التقارب متذرعين انه جزاء من دولتهم الجديدة .

وعندما ضاق بهم البلاد كانوا يتنقلوا مابين مدينة نور بخارى شتاءً و سغد سمرقند صيفاً ,ومن الطبيعي ان عملية التنقل من مكان الى اخر قد يصاحبها استقرار لبعض العوائل في نور بخارى وكذلك سغد سمرقند

واصبحت السلاجقة دولة مترامية الاطراف تمتد من حدود الهند والصين شرقا الى البحر الابيض المتوسط غربا ومن البحر الاسود شمالا الى خليج جنوبا.

وبذلك واصبحت السلاجقة قوة لا يستهان بها وقوة ضاربة وحامية للسلام .

السيطرة السلجوقية وتجاوزاتها

استخدم السلاجقة أساليب كثيرة في بسط نفوذهم , وكانت لهم تجاوزات ابرز تلك التجاوزات :

أ ـ تقبيل الأرض بين يدي الخلفاء ,وهذه العادة أسنها البويهيين واقرها السلاجقة لاسيما في عهد طغرل بك, وكانت هذه العادة تمارس عند مقابلة الخلفاء , ومارس هذه العادة طغرل بك بين يدي الخليفة القائم بامر الله سنة 451 هـ عندما قضي طغرل بك على البساسيري,وهي

عادة مخالف لمبادئ الدين الاسلامي,بل يمكن القول انها محرم تحريم كلي في الدين الاسلامي .

ب ـ لم يحركوا ساكن اتجاه الفتن المذهبية التي عمت الخلافة العباسية في عهدهم فكانت عدة فتن منها في سنة 475 هـ/478 هـ/ 481 هـ /482 هـ/ وهذه الفتنة تركها السلاجقة حتى تدخل الخليفة واستعان بوالي الحلة صدقة بن مزيد.

ج . تقليل هيبة الخلافة, فعندما امتنع الخليفة القائم بامر الله بتزويج ابنته من السلطان طغرل بك قبض كل املاك الخليفة ثم اعلان موافقته ولكن وفاة السلطان طغرل بك كانت قبل الزوج منعت ذلك الزواج , وذكر أن السلطان مسعودً هو الذي ارسل لقتل الخليفة المسترشد، اذ هجم على الخليفة مجموعة من العسكر في خيمته، ففتكوا به وقتلوا ومعه جماعة من أصحابه، فما شعر بهم العسكر إلا وقد فرغوا من شغلهم، فأخذوهم وقتلوهم، فاشتد ذلك على الناس وكان سنة 529 هـ.

ولم يقف السلطان مسعود عند هذا الحد بل دخول مسعود بغداد وخلع الخليفة الراشد، وبايع عمه محمد بن المستظهر ولقب المقتفي لأمر الله.

وبلغ الراشد الخلع فخرج من الموصل إلى بلاد أذربيجان ..... ومرض الراشد بظاهر أصبهان مرضًا شديدًا، فدخل عليه جماعة من العجم كانوا فراشين معه، فقتلوه بالسكاكين.

د. محاولة السيطرة على مقدرات الشعب,عند دخول السلاجقة بغداد سنة 447 هـ قام الجيش السلجوقي بنهب ممتلكات الشعب وثار اهالي بغداد على الجيش السلجوقي ودارت معارك بينهما وقع قتلى بين الطرفين, حتى ان الذهبي يقول في سنة 455 قدم السلطان طغرلبك بغداد، فعاث جيشه وفسقوا، ونزلوا في دور الناس، وهجم جماعة على حمّامين، وأخذوا ما استحسنوا من النساء.

((المحاضرة السادسة))

حقبة انتعاش الخلافة العباسية وسقوط السلاجقة

لقد تضافرت عوامل عديدة في سقوط السلطنة السلجوقية التي مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية ومن هذه العوامل :

1 – الصراع داخل البيت السلجوقي بين الإخوة والأعمام والأبناء والأحفاد ومن الامثلة على ذلك الصراع بين سليمان بن قتلمش بن اسرائيل والي سلاجقة الروم وتتش والي الشام واداء في النهاية الى مقتل سليمان, وهذه الصراعات ادت الى تفكك وضعف البيت السلجوقي وبالتالي نهاية السيطرة السلجوقية.

2 – تدخل النساء في شؤون الحكم , اذ نراء تدخل سافر للنساء في حكم الولاة والامراء وحتى الخلفاء .

3 – إذكاء نار الفتنة بين حكام السلاجقة من قبل بعض الأمراء والوزراء والأتابك.

4 – ضعف الخلفاء العباسيين أمام القوة العسكرية السلجوقية، فلم يتورعوا عن الاعتراف بشرعية كل من يجلس على عرش السلطنة السلجوقية .

5 – عجز السيطرة السلجوقية عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق تحت راية الخلافة العباسية.

6 – الانقسام الداخلي بين سلاجقة العراق والشام وخراسان والذي وصل إلى المواجهة العسكرية المستمرة، وهذا ما أنهك قوة السلاجقة حتى انهارت سلطنتهم في العراق.

7 ـ وصول اطفال لم يتجاوز العشر سنين من العمر الى سدة الحكم امثال محمود بن تركان خاتون والذي اسهم اسهاماً مباشراً في نهاية السيطرة السلجوقية.

8 ـ استقلال بعض الدول عن التبعيه للخلافة العباسية والسيطرة السلجوقية مثل الدولة الخورزمية والدولة الفاطمية.

7 – حملة التصفيات والمحاولات المستمرة لاغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقادتهم ووزرائهم امثال الوزير نظام الملك .

8 – تقاعس السلاجقة لمقاومة الغزو الصليبي القادم من وراء البحار والذي بدأ سنة 490هـ واداء الى احتلال اجزاء كبيرة من العالم العربي .

9 – ظهور دول وأمارات في المشرق والمغرب ساهمت مساهمة فعالة في ضعف الدولة السلجوقية

10 – سقوط سلاجقة خراسان سنة 557 هـ على يد الدولة الخوارزمية وجعل الدولة الخوارزمية خنجر مسموم في ظهر سلاجقة العراق بعد طموح الخوارزميين في الوصل الى سدة الحكم على حساب السلاجقة.

وغير ذلك من الأسباب والعوامل. إلا أن سلاطين السلاجقة كانت لهم أعمال جليلة من أهمه :

أ- كان لهم دور في تأخير زوال الخلافة العباسية، حوالي قرنين من الزمان حيث أوشكت قبل مجيئهم على الانقراض في ظل سيطرة البويهيين لاسيما

بعد تمرد البساسيري والسيطرة المطلقة له على بغداد ثم الموصل وغيرها من المدن.

ج- كانت الجهود التي بذلتها الدولة السلجوقية تمهيداً لتوحيد المشرق الإسلامي والذي تم على يد صلاح الدين الأيوبي وتحت راية الخلافة العباسية.

د- قام السلاجقة بدور ملموس في النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علمياً وإدارياً ونشروا الأمن والاستقرار فيها.

هـ- وقفوا في وجه التحركات الصليبية من جانب الإمبراطورية البيزنطية، وقام نواياهم بمحاربة الجحافل الصليبية التي احتلت بيت المقدس وطرابلس والرها، وجزءًا من بلاد الشام وسواحلها.

و- رفعوا وعظموا شأن الدين الاسلامي

((المحاضرة السابعة))

أسباب الحروب الصليبية

هنالك أسباب كثيرة للحروب الصليبية على البلدان الإسلامية ومن بينها :

أولاً: السبب الديني:

كان من بين الأسباب الرئيسية التي دفعت الغربيين الصليبيين بالهجوم على العالم الإسلامي ,اذ اتفق الغرب الصليبيين مع الشرق البيزنطينيين الصليبيين على خوض معارك مع العالم الإسلامي لاسيما بعد الفتوحات الإسلامية وكان يدفعهم العامل الديني رغم اختلاف المذهبية المسيحية اذ كانت الغرب الرومان على الكنيسة الكاثوليكية والشرق البيزنطي على الكنيسة الأرثوذكسية ، ولكن جمعهم الشعار الرئيسي الا وهو الصليب , فقد كان شعار الحروب الصليبية انهم وضعوا إشارة الصليب على أكتافهم وأسلحتهم والأمتعة الخاصة بهم وقصدوا فلسطين بالذات ، وقد ظهرت في الغرب الاوربي حركة الإحياء الديني في القرن العاشر الميلادي، وبلغت أشدها في القرن الحادي عشر، وهذه الحركة الدينية أدت في نهاية المطاف الى تعظيم القسس والبابوية والرهبان , ولم تعد البابوية مجرد مؤسسة دينية بل أصبحت قوة سياسية تحاول تفرض وجودها وتحقق طموحاتها في السيطرة والحكم على كافة المسيحيين بوصفهم ورثة المسيح(عليه السلام), وبالتالي أصبح لهم كلمة الفصل في تحشيد الجيش الروماني او بالأحرى النصراني نحو الإسلام، ومن أشهر من تبنى الدعوة إلى الحروب الصليبية هو البابا أوربان الثاني والذي يعد من الشخصيات البارزة لقيادة الحملة الصليبية، فسارع إلى عقد اجتماع في مدينة (كليرمنت) في فرنسا واستمر المؤتمر عشرة أيام حضره أكثر

من ثلاثمائة من رجالات الكنيسة كما حضره أمراء من مختلف أنحاء أوروبا، ومندوبون عن الإمبراطور البيزنطي، وممثلون عن المدن الإيطالية .. واستطاع البابا أن يثير حماس السامعين في خطبة دينية قوية جاب أرجاء المجتمع هتاف بترديد عبارة " هكذا أراد الله " وبادر الحاضرون إلى اتخاذ الصليب أشارة لهم

وبذلك يكون البابا قد استخدم الذريعة الدينية سببا قي تحشيد الجيوش الصليبية ضد العالم الإسلامي متذرعا بما أسماه بالخطر الإسلامي المحدق بأوروبا من جهة القسطنطينية، وزعم أن النصارى في المشرق يعانون من ظلم المسلمين، وأن الكنائس والأديرة، قد أصابها الدمار، وحث الحاضرين على الانتقام من المسلمين وإبعادهم عن القسطنطينية التي تعد عاصمة الصليبيين الشرقيين والحقيقة المطلقة ان المسلمين بعيدين كل البعد عن هذه الأفعال وأنهم عاشوا ومازالوا جنب الى جنب مع النصارى في العالم الإسلامي وفق علاقات تسودها المحبة والتعاون والمودة بغض النضر عن بعض التصرفات الفردية لبعض الأشخاص , وان ما قاله البابا ادعاء باطل و لا يمد إلى الحقيقة بصلة, وان المسيحيين سمح لهم بأداء شعارهم الدينية وبناء كنائس جديدة بل ويقر أكثر المؤرخين المنصفين أن النصارى الذين خضعوا لحكم السلاجقة، كانوا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها, اذ بعث رسالة من بيت المقدس سنة 256 هـ إلى اجناتيوس في القسطنطينية و التي امتدح المسلمين وأثناء على قلوبهم الرحيمة اذ سمح لهم ببناء كنائس جديدة دون أي تدخل في شؤونهم وقال "ان المسلمين قوم عادلون,ونحن لانلقي منهم أي اذى او تعنت " , ويقول احد الكتاب الغربيين "ان الحق يتطلب منا ان نعترف بان المسلمين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية اسعد حالا مما كانت عليه بعض الطوائف المسيحية التي عاشت في كنف الدولة البيزنطية ذاتها " .

ومن التصريحات الدينية الأخرى المسيحية المتطرفة اذ صرح ان من اخبار" الكرامات والمعجزات التي بثتها الكنيسة،ساد الاعتقاد بأن نزول المسيح ثانية إلى الأرض أصبح وشيكاً ولابد من المضي في الاستغفار وعمل الخير، قبل هبوطه، كما ساد تصور مفاده أنه ينبغي استرداد الأرض قبل عودة المسيح , وقد أدرك البابا أن فورة الحماس الديني لن تستمر طويلاً، فدعاً إلى القسم بأن تؤدى الصلاة في كنيسة القيامة"

كما وصرح اربان تصريحا كسب الداني والقاصي من المسيحيين اذ "نصب القادمون خيامهم في الأراضي المكشوفة، وعقدوا اجتماعاً كبير لا يتسع له بهو، وامتلأت قلوبهم حماسة حين وقف على منصة في وسطهم إربان الفرنسي وألقى عليهم باللغة الفرنسية أقوى الخطب وأعظمها أثراً في تاريخ العصور الوسطى وقال: يا شعب الفرنجة! شعب الله المحبوب

المختار! ... لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية، أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق, ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب. وهم يهدمون المذابح في الكنائس، بعد أن يدنسوها برجسهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين- - - أنتم يا من حباكم الله أكثر قوم آخرين بالمجد في القتال، وبالبسالة العظيمة، وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم- - - أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم- فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست .. لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسركم, ذلك بأن هذا الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن تجود بما يكفيهم من الطعام، ومن اجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضكم بعضاً، وتتحاربون، ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية, طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على ما بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث، وتملكوها أنتم. إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها- - - وعلت أصوات هذا الجمع الحاشد المتحمس قائلة: "تلك إدارة الله وردد إربان هذا النداء ودعاهم إلى أن يجعلوه نداءهم في الحرب، وأمر الذاهبين إلى الحرب الصليبية أن يضعوا علامة الصليب على جباههم أو صدورهم. ويقول وليم مالمزبري وتقدم بعض النبلاء من فورهم، وخروا راكعين بين يدي البابا، ووهبوا أنفسهم وأموالهم لله وحذا حذوهم آلاف من عامة الشعب، وخرج الرهبان والنساك من صوامعهم ليكونوا جنود المسيح بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ لا بمعناه المجازي".

وعند تمعن بهذا الرسالة نجد ان البابا قد لعب على الوتر الديني والاقتصادي معا وكسب كثير من التجار والعامة لخوض المعارك الصليبية التي ستقام ضد المسلمين , كما وعند قراءة النص نجد تطرف ديني قوي وانكار لدين سماوي منتشر ان لن يكن مساوي لدينه فهو أقوى منه .

ثانياً:الاسباب السياسية:

لعب السبب السياسي دورا رئيسيا في تحشيد الجيوش الصليبية باتجاه المسلمين فالمعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط دائماً بالأرض وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة، بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن

أن تواجه الأمير والفارس هي عدم وجود أقطاع أو أرض له، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ، وأدى هذا إلى بقاء عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض، وبداء يبحثون عن ارض كي يعدو نظامهم الإقطاعي الذي يعش على الطبقة المسحوقة, وبما أن من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه ، وهذا يعني بقاء بقية الأبناء دون ورث وبالتالي دون أرض، وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي، الأمر الذي جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع، أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع جديد ومن هذا المنطلق ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان، فلبوا نداء البابوية، وأسرعوا إلى الإسهام في تلك الحركة لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق، تعوضهم ما فاتهم في الغرب,وبالتالي سوف يجدون بصيص أمل بإعادة النظام الإقطاعي على العالم الإسلامي الذي منعهم منه الأب وأعطاها لابنه الاكبر ,أما الأمراء والفرسان الذين كانوا يمتلكون أقطاعات فقد وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم وبدراستنا لمراجع الحروب الصليبية نرى أن أطماع أمراء الحملة الأولى تجلت في عدة مظاهر سياسية، فقد أخذوا يقسمون الغنيمة وهم في الطريق أي قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً.

ثالثا:الأسباب الاجتماعية:

نقسم المجتمع الأوربي في العصور الوسطى إلى ثلاثة طبقات طبقة رجال الدين وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان (الإقطاعية)، و طبقة الفلاحين , فطبقة رجال الدين كان هم من يسيطر على الأمور حتى صغار القسس كان لهم دورا بارزا ومتميزا , فرجال الدين هم من يرسمون سياسة الدولة وهم من يقررون خوض الحروب او لا, إما طبقة النبلاء والفرسان فهم الطبقة الثانية وهم بفعل عادات وتقاليد المجتمع الأوربي يورث في هذه الطبقة الابن الأكبر فقط عند وفاة الأب وبذلك أصبحوا أقطاعين يتحكمون بمسيرة الفلاح المغلوب على أمره إما الطبقة الثالثة وهي طبقة الفلاحون والتي تمثل الأكثرية المغلوبة على أمرها، والتي كان أفرادها يكدحون ليسدوا حاجة الطبقتين الأوليتين، وكان مطالباً بالتزامات عديدة لأصحاب الإقطاع، وكان البابا على دراية في أحوال الفلاحين الكادحين، فوعدهم بإلغاء التزاماتهم نحو أسيادهم وأغراهم بخيرات الشرق الإسلامي، كان آلاف الفلاحين يعيشون عيشة منحطة في نظام الإقطاع، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخاً من جذوع الأشجار وفروعها وغطيت سقوفها بالطين

والقش، دون أن يكون لها نوافذ، ولا يوجد داخلها أثاث بل كان ما يجمعه الفلاح يعتبر ملكاً خاصاً لسيده الإقطاعي، كما يعتبر محروم من الملكية الشخصية ويعد مملك لسيده يعش عيشة شاقة ملئيه بالذل والهوان مسيطر عليه الطبقة الوسطى-النبلاء والفرسان – وكانوا مثقلين بالالتزامات الخدمية لأسيادهم الإقطاعيين في شتى المجالات إلى جانب حرمانهم من منتجاتهم , وبذلك تظهر مدى التعاسة والبؤس الذي كان يعيشه غالبية شعب أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي وهكذا لما ظهرت الدعوة للغزو الصليبي، وجدت هذه الغالبية العظمى فرصتها للخلاص من حياتها الشاقة المليئة بالمشاكل والهوان والالتزامات الاقتصادية، ونظروا إلى أخطار الاشتراك في هذا الغزو نظرة هينة أمام ما كانوا يعيشون فيه فإن ماتوا في هذه الحرب كان لهم الخلاص وإن نجوا كانت لهم حياة جديدة أفضل مما كانوا عليه، ولقد عرفت الكنيسة كيف تلعب بعقول هؤلاء، وتوغر صدورهم ضد الإسلام وأهله، وخدعتهم بأنهم سيحررون بيت المقدس والقبر المقدس، يباركهم الرب، والبابا، بل كان قتل المسلم مرضاة ينال عليها الصليبي ثواباً.

ويقول ستيفن احد مؤرخي الحروب الصليبية "قد وفرت الحروب الصليبية مهربا من المجاعة والاضطهاد,خاصة بعد إن وعدتهم برحمة دنيوية بالإضافة إلى الرحمة الروحية" .

وبذلك تجمع إلف من الفلاحين للمشاركة في الحروب ضد المسلمين بالشرق كي يتخلصوا من وضعهم الاجتماعي الملئيه بالعادات والتقاليد السيئة المهانة وكان تطلعهم بأنهم سوف يتخلص من الالتزامات الاقتصادية الكثيرة جدا المفروضة عليهم لا سيما وان هذا التخلص ممزوج بغطاء الدين.

رابعاً:الاسباب الاقتصادية:

بما إن المجتمع الأوربي الغربي مر بمراحل الضعف والوهن الاجتماعي وسيطرة النبلاء والفرسان على المقدرات الاقتصادية للمجتمع , لذا كان المجتمع يعاني من أمس الحاجة لسد لقمة العيش بل وأصبح مغرق بالالتزامات الاقتصادية المثقلة على الإفراد , وبمرور الزمن أصبح ليس له الحق في تمليك أي شيء , لذا كان ينتظر الفرصة المتاحة للتخلص من تلك الديون المترتبة عليه ويفر من ذلك الجحيم الذي اجتاح نفسه وأهله بل وأبناء قريته.

ويعد التطلع إلى خيرات المشرق الإسلامي، من أقوى دوافع الحروب الصليبية بعد الدوافع الدينية وقد عبر البابا (أوربان) نفسه في خطابه عن أهمية العامل الاقتصادي بالنسبة لواقع أوروبا آنذاك فقال: لا تدعوا شيئاً يقعد بكم... ذلك أن الأرض التي تسكنوها الآن، والتي تحيط بها البحار وقلل الجبال ضيقة على سكانها

الكثيرين، وتكاد تعجز عن كفايتهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضكم بعضا... إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها بل هي فردوس المباهج ويمكن القول من خلال دراسة الحروب الصليبية ان نقول ان الدفع لاقتصادي ربما يرتقي الى مستوى الدافع الديني, وكانت فرنسا بالذات تعاني من مجاعة شاملة قبيل الحملة الصليبية الأولى، ولذلك كانت نسبة المشاركين منها تفوق نسبة الآخرين، فقد كانت الأزمة طاحنة حيث لجأت الناس إلى أكل الحشائش والأعشاب، وبذلك جاءت هذه الحرب لتفتح أمام أولئك الجائعين بابا جديدة للخلاص من أوضاعهم الصعبة وهذا ما يفسر أعمال السلب والنهب للحملة الأولى ضد الشعوب النصرانية التي مروا في أراضيها .

ويذهب ول ديورانت الى ابعد من ذلك ويقول ان "رغبة المدن الإيطالية- بيزا، وجنوي، والبندقية، وأملفي كان هدفها توسيع ميدان سلطانها التجاري"

لذا يعد العامل الاقتصادي من العوامل المهمة في تشجيع عامة الصليبيين بالتوجه نحو الشرق الإسلامي لا سيما وان العالم الإسلامي يطل على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي وبذلك يربط ثلاث قارات هي أسيا وإفريقيا واربا , وأرضه صلاحه للزراع وفيه انهار مياه عذبة , وبذلك يكون منطقة مهيأة صناعيا وزراعيا وتجاريا, ونهاية تلك الصفات الجيدة شجع الصليبيين بالتوجه نحو العالم الإسلامي كي يجد موطئ قدم لهم في الشرق.

خامساً:الفتوحات الإسلامية

عندما جاء النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة الإسلامية كانت هنالك إمبراطوريتان ظاهرتان قويتان هما الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية وكانتا مهيمنتان على اغلب البلدان في ذلك الوقت.

بدء الإسلام ينتشر إذ انتصر على الإمبراطورية الفارسية في موقعة القادسية وادخل بلاد فارس إلى حظيرة المجتمع الإسلامي وبعد ذلك اتجه قادة الإسلام في نهاية القرن الأول الهجري صوب الغرب وفتح بلاد الأندلس بقيادة طارق بن زياد ليؤسس أول موطئ إسلامي في اوربا .

وعندما دخلت السلاجقة بغداد سنة 447 هـ انطلقا إلى آسيا الصغرى وأسس دولة سلاجقة الروم وجعل نقية عاصمة لهما وهي قريبة جدا من القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وبالفعل اشتبك السلاجقة مع بيزنطة في موقعة ملاذ كرد سنة 463 هـ وانتصر السلاجقة على الإمبراطورية البيزنطية واسر الإمبراطور البيزنطي

روماتوس ديوحين , ويعد هذا الحدث من أهم الأحداث التاريخية في مفاصل الإمبراطورية البيزنطية .

كل هذه الأحداث جعلت الإمبراطورية الرومانية متخوفة من الدولة الإسلامية الفتية التي بدأت تبتلع تلك الإمبراطوريات القوية , وكان يراودها الشك بان الإمبراطورية الرومانية الشرقية او الغربية سوف يأتي يوما وتدخل ضمن حكم الإسلام لذا سارعت في جمع حشودها من الغرب الرومان والشرق البيزنطي وقررت التوجه صوب البلدان الإسلامية , وبالفعل تم مهاجمة بلاد الشام والمغرب العربي ومصر بأكثر من سبعة حملات صليبية أسفرت عن احتلال الرهاة وأنطاكية والقدس ومدن عربية أخرى.

((المحاضرة الثامنة))

سادسا: استغلال ضعف الدولة العربية الإسلامية وتبادل ميزان القوى

احدث تبدل ميزان القوى في حوض البحر الأبيض المتوسط منذ أواسط القرن (الخامس الهجري /الحادي عشر للميلاد) لصالح الغرب الأوروبي مركز الحركة الصليبية وأداء ذلك التبادل إلى ضعف الدولة البيزنطية وتراجعها تحت ضربات السلاجقة القوية وجعلها تسارع في الاستنجاد بأوروبا الغربية من ناحية لا سيما و ان اختلال أوضاع المسلمين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي خاصة في الأندلس وصقلية قد بدء يظهر جلياً، وما قابل ذلك من تيسير أسباب القوة والظهور لدى أعدائهم، وجعل الغرب الأوروبي يرفد النصارى الأسبان بشتى صنوف الدعم والمساندة في صراعهم مع مسلمي الأندلس - - - وكانت البابوية تدعم هذه الحرب بالموافقة والتوجيه والدعاية والدعم المعنوي سواء كان هذا الدعم في الأندلس في بلاد الشام ، فهذه حروب صليبية متقدمة وقد إعلان البابا أوربان الثاني بدء الزحف الصليبي إلى المشرق سنة 488هـ - 1095م.

سابعا: استنجاد إمبراطور بيزنطة بالبابا أوربان الثاني

استنجاد الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بالغرب الرومان لتخلصهم من الخطر السلجوقي ولم يكن في الحقيقة هذا الاستنجاد هو الأول من نوعه بل سبقه استنجاد للإمبراطور (ميخائيل السابع) من البابا (جريجوري السابع) وهذه الاستنجادات كانت بعد

موقعه ملاذكرد سنة 463 هـ الشهيرة والتي حقق فيها السلاجقة انتصارهم الشهيرة على الإمبراطورية البيزنطية, والظاهر ان الأناضول تعد أكثر أهمية من بيت المقدس عند الدولة البيزنطية، وعندما أصبحت عاصمة البيزنطيين مهددة من قبل السلاجقة كان لزاماً على الإمبراطور أن يستنجد بالغرب في مقابل اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية، وقد أرسل البابا جريجوري السابع إلى الإمبراطور ميخائيل السابع رداً مرضياً بدافع العاطفة المسيحية من جهة، وبدافع سياسي من جهة أخرى، فما يحشده من جيش سوف يقضي على الانشقاق بين الكنيستين, ويزيد من نفوذ البابوية في الشرق مثلما زاد في الغرب.

غير أن الحرب التي نشبت بين (جريجوري السابع) والامبراطور (هنرى الرابع) منعته في المضي في مشروعه ولما خلف الإمبراطور (الكسيوس كومنين) الإمبراطور ميخائيل السابع, بعث برسالة إلى البابا أوربان الثاني وإلى كبار رجال الإقطاع سنة 487هـ يدعوهم لإرسال المساعدات لنجدة إخوانهم في الشرق وحماية القسطنطينية من الخطر السلجوقي ، ولقد كان (الكسيوس) يرغب في أن يبعث له الغرب ببعض الجند المرتزقة ولكن البابا أوربان لم يشأ أن يجعل نفسه في خدمة الدولة البيزنطية، بل أراد أن تتولى البابوية تقديم المساعدة للمسيحيين في الشرق، وهذا التغيير في الفكرة يؤدي إلى أن يحشد العالم المسيحي جيشاً ضخماً لا أن يبعث بجنود مرتزقة تخضع لأهواء الأمراء، وأشار هذا الاختلاف في التفكير إلى المتاعب منذ البداية مما أساء العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين الرومانيين.

والثابت تاريخياً أن المسؤول الأول عن قيام الحركة الصليبية هو البابا أوربان الثاني، فهو الذي أنذر بقيام تلك الحروب

سابعاً: طموحات البابا أوربان الثاني بتوسع مشروعه الشامل للغزو الصليبي على عالم الإسلامي

عند دراسة حياة البابا اوربان الثاني نجد له طموحات دينية لنصرة الكنيسة لا سيما الغربية منها اذ أصبح راهباً في دير علوني بالقرب من ماكون، وقد التحق بخدمة البابا المتسلط المؤمن إيماناً راسخاً بتفوق البابوية على الإمبراطورية ونعني به جريحوري السابع وتم تعيينه كاردينالا أسقفاً لاوستياً في عام 473هـ/1080م، وخدم الكنيسة في ألمانيا وقد ساند البابا جريجوري السابع في خلال صراعه مع الإمبراطور هنري الرابع، وقد ارتبط أوربان الثاني بسينودس (مجمع كنس) في ساكسوني الذي عقد عام (478هـ/1085م) , وعند وفاة البابا فيكتور الثالث في 16 سبتمبر480

هـ/ 1087م في مونت كاسينو تمت السيطرة على روما عن طريق كايمنت الثالث، وتم انتخاب أوربان الثاني بعد تأخير طويل في تراكينا إلى الجنوب من روما بالقرب من جايثا وحمل اسم أوربان الثاني (481 – 493هـ/1088 – 1099م) .

ونلاحظ من خلال سيرة هذا الرجل أنه اتسم بالنشاط الوافر والطموحات العالية في نصرة الكنيسة، وإحكم سيطرته على كل مناطق نفوذ الكنسية الأم.

ولا شك أن أوربان الثاني في دعمه الحرب ضد المسلمين هناك كان يسير على خطى وهدى البابا ألكسندر الثاني، وهذا يؤكد لنا على حقيقة محورية وهي وجود استراتيجيه عليا للبابوية في روما تتجه نحوها وتنفذها بحرص في القرن الحادي (عشر الميلادي/ الخامس الهجري) على نحو خاص بغض النظر عن تغير وتقلب البابوات، وأهم ملامح هذه الإستراتيجية هي توسيع نفوذ كنيسة روما، وتوحيد الكنائس، ومحاربة الإسلام أينما وجد باعتباره العدو اللدود الذي لا مناص من مواجهته ومحاولة الانتصار عليه بأي ثمن ، ومن الملاحظ أن من خلال الاستغاثات البيزنطية المتعددة، وانشغال من سبق أوربان الثاني بأمور متعددة، جاءت الفرصة السانحة لهذا البابا.

لذا يمكن القول ان البابا اوربان الثاني فتح طريق لحروب صليبية إسلامية دامت اكثر من قرنين من الزمن.

ثامنا : أفعال السلطان الفاطمي الحاكم بأمر الله

دمر الحاكم بامر الله الفاطمي كنيسة الضريح المقدس والذي اثر حفيظة الغرب وكان احد أسباب تجمع الصليبيين إذ نغم على هذا الوتر الحساس كل الباباوات والقسس وستطاع جمع اكبر عدد ممكن من الصليبيين الشرقيين والغربيين وتوجيهم نحو الشرق الإسلامي ,ولكن المسلمين أنفسهم قدموا المال الكثير لإعادة بنائها وقد وصفها الرحالة المسلم انصري خسرو بناها بناء واسع الجنبات تتسع لثمانية آلاف شخص، بذل في بنائها أعظم ما يستطاع من الحذق والمهارة، وزين كل مكان في داخلها بالنسيج الحريري البيزنطي المطرز بخيوط الذهب، ورسم فيها المسيح عليه السلام راكباً على ظهر حمار وكان في أورشليم كنائس أخرى كثيرة, وكان الحجاج المسيحيين يدخلوا الأماكن المقدسة بكامل حريتهم ,وكان الحج إلى فلسطين قد أصبح من زمن بعيد إحدى شعائر العبادة أو التوبة من الذنوب، فكان الإنسان أينما سار في أوربا يلتقي بحجاج يدلون على أنهم أدوا هذه الشعيرة بأن يضعوا على أثوابهم شارة في شكل الصليب من خوص النخل جاءوا به من فلسطين.

وكان هنالك معارك حدثت لها دورا في اسباب قيام الحروب الصليبية منها :

اولا :معركة ملاذكرد 463 هـ

وقعت معركة ملاذكرد بين جيش السلاجقة المسلم بقيادة السلطان ألب أرسلان، وجيش الدولة البيزنطية بقيادة إمبراطورها رومانوس عام 463هـ وكان تعداد البيزنطينيين ما يقارب مائتي ألف معظمهم من الروم والفرنج والروس والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد, مقابل خمسة عشر ألف فارس من السلاجقة المسلمين، وترجع أسبابها إلى تمكن السلطان السلجوقي ألب أرسلان من مدة سيطرته على معظم البلاد النصرانية المجاورة امثال جورجيا وبلاد الأرمن, وعمل على نشر الإسلام في هذه المناطق، فكان من الطبيعي أن يُغضب إمبراطور الروم رومانوس (يوجينس).

فجمع جيشًا جراراً يضم أخلاطاً من الشعوب النصرانية، تضم الروس والفرنسيين والبلغاريين واليونانيين والجورجيين، وسار بهم في عسكر إلى نواحي ملاذكرد بالقرب من مدينة أخلاط في آسيا الصغرى.

عندما أيقن ألب أرسلان أنه لا قبل له بهذا الجيش، عرض الصُلح على البيزنطينيين، ولكنهم رفضوا اغتراراً بقوتهم, وهنا أعلن السلطان السلجوقي ألب أرسلان الجهاد المقَّدس لإنقاذ بلاد الإسلام من الصليبيين، فقويت الروح المعنوية لدى جنوده واستماتوا في القتال، وتمكنوا السلاجقة من انتزاع النصر في معركة حامية الوطيس بالقرب من ملاذكرد– -- وأسُر قائد الروم, وانتهى الأمر بعقد معاهدة بين الطرفين مدتها خمسون سنة، تعهد الروم فيها بدفع الجزية للسلاجقة وقدرها (الف الف وخمسمائة الف دينار)، وافتدى رومانوس نفسه بمال كثير، وإطلاق جميع اسرى المسلمين الذي أسرهم البيزنطينيين ورجع روماتوس إلى بلاده صارفاً النظر عن هذا الجزء من آسيا.

والغريب ان المفروض لا اعتداء من قبل بيزنطة قبل العام 513 هـ ولكن نلاحظ ان بيزنطة ومن لف معها حشدوا جيش جرارة وتقدموا على المسلمون سنة 492 هـ واحتلوا القدس.

وتعد هزيمة بيزنطة في موقعة ملاذكرد أول بداية نهاية الدولة البيزنطية وكان لها اثار في تحطيم معنوياتهم العسكرية، وتفكك أوصالها.

وبذلك تكون هذه المعركة قد نبهت الروم في الغرب ان الإسلام سوف يزحف يوما ويصل إليهم لذا قرروا موجهته في الشام او في آسيا الصغرى فبدء تحشديهم لاسيما وان السلاجقة بدأ ت الصراعات العائلية بينهم في أواخر القرن الخامس الهجري.

ثانيا : فتح إمبراطورية غانا سنة469 هـ

فبعد ست سنوات من معركة ملاذكرد الشهيرة, أي في عام 469هـ, استطاع المرابطون في المغرب أن يفتحوا عاصمة إمبراطورية غانا «كومبي صالح» وأن يفرضوا الإسلام على جميع البلاد, وقد وافق ملك غانا «تنكامنين» على الدخول في الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين، وقد دخل كثير من الشعب في الإسلام أيضاً، وبذلك تكون ديار الإسلام قد امتدت في إفريقيا على مساحة جديدة تقرب من نصف مليون كيلو متر مربع وفي الوقت نفسه فقد اتسعت ديار الإسلام في الجنوب الشرقي في الهند وفتحت مساحات واسعة من شمال تلك البلاد.

وبذلك يكون المسلمون قد بدء توسعهم على حساب اوربا وافريقيا بنشر الدين الإسلامي, و وجهه ضربات للصليبيين والوثنيين في خلال اقل من عشر سنوات اذ انتصر المسلمين في معركة ملاذكرد(463 هـ) على البيزنطينيين ووفتح غانا الوثنية الافريقية سنة (469 هـ) وانتصر يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة (479 هـ) على الصليبيين لاسيما وان هذه المعارك قد غيرت مسر التاريخ من حيث النتائج على ارض الواقع .

هذه ربما كانت احد الأسباب في تحشيد الصليبيين نحو الدولة العربية الاسلامية

ثالثا: وقعة الزلاقة بالأندلس(479 هـ)

عندما اخذ الأدفونش طليطلة استعان المسلمون بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب سبتة ومراكش، فبادر وعدّى بجيوشه، ثم إن يوسف بن تاشفين استعرض جنده على حصن الرقة , فرأى منهم ما يسره، فقال للمعتمد بن عبادة وهو والي اشبيلية وأشهر ملوك الطوائف: "هلم ما جئنا له من الجهاد وقصد العدو, وجعل يظهر الإقامة بجزيرة الأندلس، ويتشوق إلى مراكش، ويصغر قدر الأندلس، ويقول في أكثر أوقاته: كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها، فلما رأيناها وقعت دون الوصف! , فخرج المعتمد بين يديه قاصدًا مدينة طليطلة، واجتمع

للمعتمد أيضًا جيش ضخم من أقطار الأندلس ,وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات، وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح، فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة بقدر عشرين ألفًا، والتقوا هم والعدو بأول بلاد الروم".

وكان الأدفنش قد استنفر الصغير والكبير، ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه ,واجتمع الامير يوسف بن تاشفين بالمعتمد بن عبّاد بإشبيلية، وتهيأ عسكرها وعسكر قُرطُبة، وأقبلت الجيوش تسير من البلدان حتّى وصلوا الى الزّلّاقة، وأقبلت الفرنج، وترى الجمعان , فوقع الأدفونش على ابن عبّاد قبل أن يتواصل جيش ابن تاشفين، فثبت ابن عبّاد وأبلى بلاءً حسنًا، وأشرف المسلمون على الهزيمة، فجاء ابن تاشفين عرضًا، فوقع على خيام الفرنج، فنهبها وقتل من بها، فلم تتمالك النصارى لما رأت ذلك أن انهزمت، فسار ابن عبّاد في أقفيتهم، ولقيهم ابن تاشفين من بين أيديهم، ووضع فيهم السيف، فلم ينج منهم إلّا القليل ,ونجا الأدفونش في طائفة ,وكان جيش ادفونش خمسين ألفًا، فيقال: لم يصل منهم إلى بلادهم الا ثلاثمائة وهذه ملحمة لم يعهد مثلها,وحاز المسلمون غنيمة عظيمة واستيلاء ابن تاشفين على غرناطة

وقد استخدم ادفونش الخطاب الديني اذ قال عندما تجمع الجيشان: الجمعة لكم، والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكتابنا وأكثر خدم العسكر منهم، فلا غنى بنا عنهم، والأحد لنا؛ فإذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف. وقصد مخادعة المسلمين واغتيالهم، فلم يتم له ما قصد ... وهاجم المسلمون يوم الجمعة[2]

وانتصر المسلمون انتصارا باهرا على الفرنج فاتحا مدن كثيرة.

وتعد هذه ربما احد حوافز الحروب الصليبية التي ظهرت بوادرها بعد تلك المعركة .

((المحاضرة التاسعة))

أولا: الحرب الصليبية الأولى:(1095– 1099م/488 – 493 هـ)

عند دراسة أبعاد وظروف الحملات الصليبية نجدها انها بدأت بوادرها تقوى شيء فشيء لاسيما بعد معركة ملاذكرد (سنة 463 هـ) الذي انتصر فيها السلاجقة على البيزنطينيين انتصارا باهرا,اذ أرسلت بيزنطة أكثر من رسالة الى روما تحثها على مساعدتها في إيقاف تمدد انتشار الدين الإسلامي في مستعمراتها في آسيا الصغرى وبدأت بمراسلة الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الرابع (1071 – 1079 م/ 464 – 472 هـ) إذ أرسل رسالة إلى البابا جويجوري السابع (1073 – 1085 م / 466 – 478 هـ) الروماني وطلب منه مساعدة وإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية مقابل أزالت كل الخلافات بين الكنيستين الشرقية والغربية وبالفعل حاول الإمبراطور تقريب وجهات النظر ولكن حدثت في عهده عدة انقلابات أطاحت به وجاء بعده نقفور الثالث (1079 – 1081 م/ 472 –474 هـ) ثم لم يلبث نقفور طويلا إلا وأطيح به الجيش وجاء بالكسيوس كومنين (1081 – 1118 م/ 474 – 512 هـ) ,اذ عاصر الكسيوس الحملة الصليبية الأولى بكل صفحاتها .

استنجد الكسيويس بالبابا اوربان الروماني الثاني (1088 – 1099 م/ 481 – 493 هـ) وطلب منه لتخلص من المسلمين وطردهم من آسيا الصغرى بالمقابل ان اوربان كان هدفه استعادة سيطرة الكنيسة الكاثوليكية الغربية على الكنيسة الارثودوكسية الشرقية من خلال تلبية ذلك النداء .

بعد خطبة البابا أوربان الثاني في كليرمونت بفرنسا التي دعا فيها إلى الحرب الصليبية، طلب من رجال الكنيسة أن يعودوا إلى بلادهم،ويبشرونهم بالحروب واجتهد رجال الكنيسة في ذلك وكانت الثمرة الطبيعية للدور الدعائي الكبير الذي قام به البابا ومن وثق فيهم، قيام الحرب الصليبية الأولى ، وانضوت جماعات لا عدد لها تحت لواء الحرب مدفوعة بمغريات جمة: منها أن كل من يخر صريعاً في الحرب قد وعد بأن تغفر له جميع ذنوبه، وأذن للأرقاء الأرض أن يغادروا الأراضي التي كانوا مرتبطين بها، وأعفى سكان المدن من الضرائب، وأجلت ديون المدينين على أن يؤدوا فائدة نظير هذا التأجيل، وتوسع البابا في سلطاته توسعاً جريئاً فأطلق سراح المسجونين، وخفف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم بها إذا خدموا طوال حياتهم في فلسطين، وانضم آلاف من المتشردين إلى القائمين بهذه الرحلة المقدسة, وأقبل كثيرون من الأتقياء المخلصين ليخلصوا الأراضي التي ولد فيها المسيح ومات،

ومنهم رجال سئموا الفقر الذي كانوا يعانون منه، والذي ظنوا أن لا نجاة لهم منه، - - - والأبناء الصغار الذين يرجون أن تكون لهم إقطاعيات في تلك البلاد، ومنهم التجار الذين يبحثون عن أسواق لبضائعهم، والفرسان الذين غادر أرضهم أرقاؤها فأصبحوا لا عمل لهم، ومنهم ذوو النفوس الضعيفة الذين يخشون أن يرميهم الناس بالجبن وخور العزيمة, ونشطت الدعامة المألوفة في الحروب فأخذت تؤكد الاضطهاد الذي يلقاه المسيحيون في فلسطين، والمعاملات الوحشية التي يلقونها على أيدي المسلمين

وقد بلغ من أمر هذا الخليط أن النساء والأطفال أصروا في كثير من الحالات على الانضمام إلى صفوفهم ليقوم النساء بخدمة أزواجهن، والأبناء بخدمة آبائهن، ولعلهم كانوا على حق في هذا الإصرار لأن العاهرات سرعان ما تطوعن لخدمة المحاربين, وكان إربان قد حدد لبدء الرحيل شهر أغسطس من عام (1096م/ 489 هـ) ، ولكن الفلاحين القلقين الذين كانوا أوائل المتطوعين لم يستطيعوا الانتظار إلى هذا الموعد، فسار جحفل منهم عددهم نحو أثنى عشر ألفاً لم يكن من بينهم إلا ثمانية من الفرسان , ولبي استجابت اوبان الثاني عدد من القس امثال ادمهار اسقف بوي والقس بطرس الناسك الذي كان ممثلا رائعا سار في أرجاء اوربا بملابسه الرثة وحافي القدمين وحماره الأعرج وكان يدعوا الى الحملة الصليبية مدعيا ان السلاجقة منعوه من الحج و قد وفق واقنع إعدادا كثيرة من الفرنسيين حتى الفلاحين لم يصبروا على الذهاب في شهر اغسطس المعلن من قبل الإمبراطور اربان فساروا في شهر مارس بقيادة القس بطرس الناسك و القس ولتر المفلس , وعند مسيرهم عبر هنغاريا صوب الدولة البيزنطية قامت تلك الحشود الغير مثقفة والغير مدربة والغير معبئة تعبئة دينه سليمة بسلب ونهب كل ما صادفهم من أشياءٍ ثمينة في البيوت والكنائس والأديرة لا سيما في القسطنطينية متناسين انهم من نفس ديانتهم .

وهذا ما يؤيد ان العامل الاقتصادي كان له الدور الأكبر في تحشيد تلك الحشود الصليبية وبالمقابل ضعف العامل الديني الذي تجاوز فيه تلك الحشود حتى على نهب الأديرة والكنائس .

ويروى ان الإمبراطور البيزنطي قد استقبل تلك الحشود باحسن حال وأبقاهم خارج القسطنطينية خوفا من تصرفاتهم التي عمت كل المدن التي مرت بها الحشود الصليبية من هنغاريا الى بيزنطة الا ان القسطنطينية لم تنجي من ذلك التصرف,

وسرعان ما أضافوا الفسق إلى السلب والنهب وقاومهم أهل البلاد مقاومة عنيفة، وأغلقت بعض المدن أبوابها في وجوههم، وأمرهم بعضها أن يرحلوا عنها بلا مهل .

وحاول الامبراطور الكيسوس أقناع تلك الجموع بعدم محاربة المسلمين حتى تصل الجموع الأخرى القادمة من اوربا الا ان تلك الجموع الغير منظمة لم تسمع نصائح الامبراطور وبدأت مرة اخرى بسلبها ونهبها للمدن وعبروا مضيق البوسفور متوجهين الى السلاجقة ولم يعلموا ان قونية عاصمة سلاجقة اسيا الصغرى قريبة جدا منهم وبل ان السلاجقة مراقبين لكل لاحداث التي مرت بها تلك الجموع الصليبية , وعندما سنح لهم المجال انقض عليهم السلاجقة وقضي على اغلب تلك الجموع وكان ولتر المفلس من بين القتلى، وأما بطرس الناسك فكانت نفسه قد اشمأزت من هذه الجموع التي لا تخضع لقيادة، وعاد قبل المعركة إلى القسطنطينية، وأقام فيها سالماً حتى عام(1115م/509 هـ).

وهذا يدل على قناعة بطرس الناسك بان تلك الحشود غير منضبطة ولا تملك وعي ديني وكان لديها خروقات دينية واقتصادية وحتى خروقات إنسانية كثيرة,لذ قرر ان يترك تلك الجحافل ويتوجه الى القسطنطينية لينهي حياته هناك.

وسارت جحافل اخرى متجهة الى فلسطين عددهم 500 شخص قادمة من ألمانيا بقيادة القس جتسشوك , وزحفت جحافل ثالثة من أرض الرين بقيادة الكونت إمكو اللينجيني وجحافل رابعة بقيادة فولكمار,وكانت هذه الجموع غير نظامية و قامت أيضا بأكثر الاعتداءات على يهود ألمانيا، وأبت أن تطيع نداء رجال الدين والمواطنين من أهل تلك البلاد، وكانت تتستر بعطشها للدماء بستار من عبارات التقي والصلاح, ويذهب بعض المؤرخون ان تلك الاعتداءات كان سببها ان المجندون قد جاءوا معهم ببعض المال، لكنهم لم يجيئوا إلا بالقليل الذي لا يغني من الطعام، وكان قادتهم تعوزهم التجارب فلم يعدوا العدة لإطعامهم, وقدر كثيرون من الزاحفين المسافة بأقل من قدرها الصحيح، وكانوا وهم يسيرون على ضفاف الرين والدانوب كلما عرجوا على بلدة من البلدان يسألهم أبناؤهم في لهفة- أليست هذه أورشليم؟ولما فرغت أموالهم، وعضهم الجوع، اضطروا إلى نهب من في طريقهم من الحقول والبيوت .

وهذا يدل على ان الوعز الديني للتك الحشود كان ضعيفا مما تسبب في نهب وسلب ممتلكات المواطنين بل وحتى لم يسلم من تلك الجموع الاديرة والكنائس.

وهنا لابد من القول ان اليهود في اوربا لم يدعموا المشروع الصليبي لأسباب كثيرة من ابرزها خوفهم على مصالحهم التجارية ,لهذا سعوا إلى عرقلة المشروع الصليبي

وقدموا الاموال لذلك , والهدف هو الحفاظ على مصالحهم , واستمرارهم في ممارسة الربا وإقراض المسحيين , وقد جرت مشاكل عديدة بين اليهود والصليبيين.

وكان فرسان الغرب يحتقرون سادة الشرق المثقفين، ويرون أنهم مارقون من الدين، مخنثون، مترفون, وكانوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى الكنوز المخزونة في كنائس العاصمة البيزنطية، وقصورها وأسواقها، ويرون أن هذا الثراء العظيم يجب أن يكون من نصيب الشجعان البواسل, ولعل ألكسيوس قد ترامت إليه هذه الأفكار التي كانت تملأ صدور منقذيه، وكان ما لاقاه في قتال جحافل الفلاحين بقيادة بطرس الناسك و ولتر المفلس, مما دعاه إلى اصطناع الحذر، نعم إنه استنجد بالغرب على الأتراك، ولكنه لم يطلب أن تتجمع قوى أوربا المتحدة على أبواب عاصمته، وعبرت هذه الجيوش البالغ عددها نحو ثلاثين ألفاً ويقول الدكتور طارق فتحي خمسين ألفا واجتمعت على الساحل البري قبالة القسطنطينية , وكان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا أشد انقساماً على أنفسهم من المسيحيين، فقد أنهكت الحروب قوة المسلمين في أسبانيا، ومزقت المنازعات الدينية وحدتهم في شمالي إفريقيا, وكان الخلفاء الفاطميون في الشرق يمتلكون بلاد الشام الجنوبية، بينما كان أعداؤهم السلاجقة يمتلكون أجزأها الشمالي والقسم الأكبر من آسيا الصغرى, وخرجت أرمينيا على فاتحيها السلاجقة وتحالفت مع الفرنجة.

وكانت سياسة السلاجقة ضعيفة جدا في حماية المدن القريبة من العاصمة البيزنطية اذ احتفظت بعدد قليل من الحمايات العسكرية على المدن الواقعة على الطريق العسكري الرابط بين المدن الإسلامية والقسطنطينية, وقد خلت بعض المدن من الحمايات العسكرية مما اتاح للقوات الصليبية التقدم باتجاه الشام .

وحاول قلج ارسلان ان يتصدى للصليبيين في موقعة دورليوم (490 هـ) والذي انتصر فيه الصليبيين على الجيش السلجوقي انتصارا باهرا

تقدم الصليبيين نحو عاصمة سلاجقة اسيا الصغرى نيقية وكانت محصنة نوعا ما بوجه الصليبيين لكنها لا تستطع الصمود الى ما لا نهاية, حاصرها الصليبيين وكان الدفاع مستميت عنها من قبل اهلها وبعض الحمايات التي تركها قلج ارسلان ,وزحفت جيوش أوربا وحاصرت نيقية حصارا قويا, واستسلمت الحامية التركية في المدينة بعد أن وعدها ألكسيوس بالمحافظة على حياتها سنة (1097 م/ 490 هـ)، ورفع إمبراطور الرومي علم الإمبراطورية على حصنها، وحمى المدينة من النهب، وأرضى الزعماء الإقطاعيين بالعطايا السخية، ولكن الجنود المسيحيين

اتهموا ألكسيوس بأنه ضالع مع الأتراك ويقال الدكتور طارق فتحي نكث الصليبين بوعدهم .
وبذلك يحصد الصليبون اول ثمارهم من تلك الحشود ويحتلوا مدينة نيقية السلجوقية ,وكسبت حملتهم العسكرية حملة دعائية واسعة الانتشار في اوربا .
وبعد هذا الانتصار بدأت المدن الاسلامية الأخرى تسقط مدينة بعد مدينة في يد الصليبيين حتى وصلوا الى اسوار الرها وحصروها ولم تدم طويلا وسقطت بأيدهم وسست اول امارة صليبية في الرها, ولاقت استياء اسلامي واسع بعد ان كان المسلمين اصحاب فتوحات اصبحوا لا يستطيعوا ان يدافعوا عن مدنهم, وقد لعب الارمن دورا رئيسيا في وصل الصليبيين الى تلك المدن, لان الارمن من سكنة آسيا الصغرى ويعرفون كل طرقها .
ولا يفوتنا بالقول ان الارمن لعب دورا في اضعاف سلاجقة اسيا الصغرى لقيامهم بثورات واحدة بعد الأخرى في آسيا الصغرى.
بعد احتلال الرها زحفت القوات الصليبية الى مدينة أنطاكية وكان يحكمها ياغي سان السلجوقي وحاصرها الصليبيين تسعة اشهر ويصفها المؤرخ الإخباري صاحب جستا فرنكورم Gesta Francorum بأنها مدينة ذات بهجة وجمال عظيم تمتاز عن سائر المدن، مات فيها كثير من الصليبيين بسبب تعرضهم لأمطار الشتاء القارس والبرد والجوع , اذ منع الصليبيين عنها كافة الامدادت البرية وكانت للأساطيل الايطالية دورا فاعلا في ذلك, وتم الاستيلاء على تلك المدينة بعد خيانة فيروز احد قادة ياغي سان , وجاءت الأنباء في شهر مايو من عام 1098م / 492 هـ أن جيشاً إسلامياً كبيراً يقوده كربوغة أمير الموصل يقترب من أنطاكية، لكن هذه المدينة سقطت في أيدي الصليبيين 1098 م / 492 هـ قبل أن يصل إليها هذا الجيش ببضعة أيام, وخشي كثيرون من الصليبيين عجزهم عن مقاومة جيش كربوغة، فركبوا السفن في نهر العاصي، وفروا هاربين .
وبذلك اسس الصليبيين امارة انطاكيا وهي الامارة الثانية ليقتربوا من حلمهم الرئيسي الا وهو احتلال القدس والذي اصبح قريب جدا من قواتهم ,فيما اصيب الذعر والخوف لكل المسلمين الساكنين هناك حتى ان المسلمين فروا من تلك المدن وتسلمها الارمن.
وتعد انطاكية مدينة حضارية مهمة فهي مدينة قديمة لها تاريخ حافل وهي ملتقى الحضارات اليونانية والعربية بفعل موقعها الجغرافي ومركز تجاري مهم بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية .

وأصبح بوهمند الصليبي أمير لانطاكيا اعترافاً بفضله، وكان يمتلك هذا الإقليم في ظاهر الأمر بوصفه أميراً إقطاعياً خاضعاً لألكسيوس، لكنه في الواقع كان يحكمه بوصفه حاكماً مستقلاً.

ثم زحفوا بجيوشهم الى القدس الهدف الاكبر للصليبيين وحاصروا المدينة حتى سقطت بيدهم في وبعد عام 1099م /493 هـ .

وفي هذا يقول القس ريمند الإجيلي شاهد العيان:وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رؤوس اعداد كبيرة من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا في النار. وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل , ويروي غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى ,يقولون إن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء, واحتشد المنتصرون في كنيسة الضريح المقدس، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت في يوم ما المسيح المصلوب .

وباحتلال بيت المقدس انتهت الحملة الصليبية الاولى اذ أدت إلى تأسيس إمارات صليبية في الشرق طال عمر بعضها إلى قرنين من الزمان وقد نجحت الحملة الصليبية إلى حد كبير في تثبيت وتأسيس أربع إمارات: الأولى في أعالي الفرات وهي الرها، والثانية في أعالي الشام وهي أنطاكية، والثالثة على الساحل الشامي وهي طرابلس، أما الرابعة، فكانت في قلب فلسطين، وهي بيت المقدس، إضافة إلى أربع مدن كبرى: هي صيدا ويافا وعسقلان والجليل، وأثني عشر إقطاعاً تسلمها أصحابها من الملك الصليبي مقابل تقديم فروض الولاء والطاعة له وتتمثل في: أرسوف، حبرون، الداروم، قيسرية، نابلس، بيسان. حيفا، تبنين. بانياس، كيفا، اللد، وبيروت .

ثانيا :الحرب الصليبية الثانية 543 هـ

بعد ان أخضع عماد الدين زنكي المنطقة الواقعة ما بين الموصل وحلب لسلطته وبدء التثقيف من قبل العلماء والدوائر المتدينة بخلق مناخٍ للرأي العام بتحرير المدن الإسلامية وطرد الصليبين منها، كان من المتعذر في ظله أن يتجنب الأمراء الشاميون المواجهة المباشرة للتحدي الذي فرضه الوجود الصليبي , وشيئاً فشيئاً نجح عماد الدين زنكي في التغلب على النعرات الانعزالية في كل من الشام والعراق, وفي سنة 1144م / 539 هـ شنَّ عماد الدين هجومًا ناجحًا على الرها, واستولى على أول إمارة صليبية قامت على تراب الشرق العربي الإسلامي ,كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي وباعثاً على السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة، بعد أن أثار سقوطها الرعب في النفوس،لا بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ النصرانية فحسب، بل لأنها كانت أيضاً، أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى , وقد انذر سقوط الرها صدمة نفسية مؤلمة للصليبيين لأن أراضي إمارة أنطاكية، شمالي غرب الرها ستكون هي الهدف التالي للمسلمين، وفي سنة 1146م / 541 هـ جرت محاولة فاشلة من قِبَلِ الصليبيين لاستعادة الرها، ولكن نور الدين محمود خليفة زنكي تمكَّن من استرجاعها, وبذلك انتهى الضغط الصليبي على مناطق أعالي الفرات, بيد أن نور الدين لم يكن قادراً على شن هجوم حاسم ضد الصليبيين, لأن سيطرته على محور الموصل – حلب لم تكن قد رسخت بعد, وان دمشق قد توصَّلت إلى حال من التعايش السلمي مع الصليبيين، واستنجد حكامها مرات ومرات بالصليبيين في مواجهة قوات زنكي ونور الدين, ومن ناحية أخرى لم يكن بمقدور نور الدين أن يهاجم البيزنطينيين ومن وراء ظهره إمارة دمشق التي لا يثق بحكامها.

وكانت ندأت الاستغاثة قد وصلت إلى البابا يوجنيوس الثالث من فرنج الشرق بيزنطة، فقد بعثت ملكة بيت المقدس بوفد رفيع المستوى إلى البابا لطلب النجدة بعد سقوط الرها وأرسل البابا رسلاً إلى إمبراطور الفرنسي الملك لويس السابع يحثه على الاسهام والانضمام الى هذه الحملة الصليبية الجديدة فلبي لويس السابع نداء البابا وقسم ان يشترك في هذه الحملة في يوم عيد الميلاد اذ ان الرها سقطت بيد المسلمين قي يوم عيد الميلاد من سنة1144 هـ إلى سنة 1145 هـ 539 هـ/ 540 هـ واستطاع لويس السابع إقناع ملك المانيا كونراد الثالث وحثه على الاشتراك بتلك الحملة والإسراع لنجدة فرنج الشرق من خطر المسلمين، وفي الوقت نفسه فقد كلف أحد رجال الدين المشهورين في فرنسا اسمه برنارد بالدعوة للحرب ضد المسلمين في الشرق، فقام هذا القس بالدور الذي قام به البابا أوربان الثاني عام 490هـ/1095م أثناء الدعوة للحملة الصليبية الاولى، وقد لبى الإمبراطور كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا دعوة البابا، وخرجا كل جيش منفرد عن الاخر خشية من

التصادم , وبسبب تقدم الالمان على الفرنسيين فقد اصطدموا الالمان مع السلاجقة في سنة 1147 م/ 542 هـ في موقعة دوريليوم شرق مدينة نيقية نفس الموقع الذي انتصر فيه الصليبيين في الحملة الأولى على السلاجقة بقيادة قلج أرسلان قبل خمسين عاماً، وقع الجيش الألماني في قبضة جيش السلطان مسعود أمير سلاجقة الروم في آسيا، فقد تراجع السلطان مسعود وفق خطة عسكرية ذكية حتى وصل الجيش الألماني تقدمه إلى قلب فريجيا، وكان السلطان مسعود قد نشر قواته على قمم الجبال المحيطة بهم ولما وصل الجنود الألمان إلى نهر باتيس قرب دوريليوم داهمهم الجيش السلجوقي، وكان قد استبد بهم التعب والظمأ فاختلت قيادتهم، وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال، لكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلاً من السهام، وفقد الجنود الألمان ميزة استعمال السهام لإبعاد الأتراك في حين افتقرت خيالتهم إلى العلف، عندئذ قَّرر كونراد الثالث الإنسحاب والعودة من حيث أتى، لكن السلاجقة لم يتركوه وشأنه فهاجموا مؤخرة جيشه ومقدمته وقلبه، فدبَّت الفوضى في صفوفه وتعَّرض أفراده لأفدح الخسائر بين قتل وأسر والواقع أن القتال لم يكن سواء مذبحة مروعة، قتل فيها تسعة أعشار الجيش، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه ، حاول كونراد الثالث، عبثاً جمع شتات جيشه إلا أنه ترك ساحة المعركة عند المساء ممعناً في الفرار مع من تبقَّى من رجاله، وقليل ما هم عائدين إلى نيقية، في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم، فقد غنموا كل ما في معسكرهم من مواد وخيول وأسروا أعداداً كبيرة منهم، ظلت الغنائم تباع في أسواق المدن الإسلامية عدة شهور وبهذه الهزيمة الساحقة يمكننا التأكيد بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي أتى من أجلها إلى الشرق، مما سيكون له أثر سيء على الحملة الصليبية الثانية .

وكان احد اسباب خسران المعركة ان لويس السابع ملك فرنسا وصل بعد انتهاء المعركة وبذلك يكون الجيش الإسلامي السلجوقي قد وجه ضرب قاسية للجيوش الصليبية بل ويمكن القول ان تلك المعركة هي التي حسمت الحملة الصليبية الثانية.

اما جيش لويس السابع فقد اتخذ الطريق الطويل الساحلي من الموصل الى بلاد الشام ,وكان بقيادة الملك لويس السابع وكان متأخراً عن الجيش الألماني وكانت القوات الفرنسية مساوية في العدد تقريباً للجيش الألماني إنما كان أكثر تنظيماً واصطحب لويس السابع معه زوجته اليانور وفي الوقت الذي كان يجري فيه القتال بين السلاجقة والقوات الألمانية، عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقية، وعلم الملك الفرنسي بهزيمة الإمبراطور الألماني، فأسرع لمساعدته وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتخذها الملك الفرنسي فقد

فأجئه السلطان السلجوقي مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية وراح يناوئ الصليبيين حتى بلغ الجسر المقام على النهر ونشبت في هذا المكان رحى معركة قاسية استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر عند ذلك تراجع مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتمكَّن الصليبيون بعدها من متابعة طريقهم، ولم يغامر مسعود بالهبوط إلى السهل لمطاردتهم، إلا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة في المناطق الحدودية، تصَّدت لهم وأمطرتهم وابلاً من السهام، كما طاردتهم وتخطَّفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمرضى ولم يصل الجيش الفرنسي إلى أنطاكية إلا بعد أن تكبد خسائر هائلة .

وهذه التعرضات السلجوقية العديدة أنهكت الجيش الفرنسي فلم يصل الا في سنة 1148 م/ 543 هـ

وبدلًا من أن يشن الفرنسيين والألمان القادمون من الغرب الصليبي هجوهم لاستعادة أول إمارة صليبية في الشرق ولتي حررها المسلمون سنة 539 هـ، إذا بهم يشنون هجوم نحو دمشق التي كان يحكمها آنذاك معين الدين أنر أتابك الملك مجير الدين أبق بن محمد بن بوري، الذي كان أكثر الأمراء المسلمين قرباً من الصليبيين-البيزنطينيين- وقد تعاون معهم في كثير من الامور ، ولذلك لم يكن يتوقع أن يكون الضحية الأولى لهذه الجيوش الصليبية الضخمة، لكنه لم علم بنوايا الصليبيين ومسيرهم نحو دمشق اتخذ جميع الإجراءات اللازمة للدفاع عن المدينة وأرسل الأمر الى نور الدين محمود وسيف الدين غازي يطلب منهما المساعدة ، فقد كان نور الدين يتوقع أن تكون إمارته حلب الهدف الأول لهذه الحملة، لأنها تشكلت وتوجهت للشرق على خلفية سقوط مدينة الرها عام 539هـ/1144م، التي تحررت على يد عماد الدين ولكن الذي حصل أن الحملة غيَّرت هدفها المتوقع وتوجهت إلى دمشق وحاصرتها وحاولت احتلالها، وكان هذا التغيير مفاجأة كبيرة لنور الدين، و مفأجاة أكبر لمجير الدين آبق حاكم دمشق وأتابكه معين الدين أنر المدبر،فكان حكام إمارة دمشق أصدقاء الصليبيين الوحيدين من بين المسلمين في المنطقة وجرى بين الطرفين تعاون وثيق ضد عماد الدين زنكي عندما كان يحاول الاستيلاء على دمشق، ولم يكن متوقعاً من الصليبيين مهاجمة أصدقائهم في دمشق وترك عدوهم الأول في حلب .

في سنة 543 هـ تقدم الصليبيين الى دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فخرج المسلمون في دمشق لملاقاتهم فكانوا مائة وثلاثين ألف رجل وعسكر البلد، فلما كان في اليوم الخامس وصل سيف الدين غازي، وأخوه نور الدين في

عشرين ألفا إلى حماه، فقد اتصل كل من سيف الدين غازي وأخوه نور الدين بـوزير دمشق معين الدين أنر لتنسيق والتعاون بينهم ضد الصليبيين وكان معين الدين أنر قد بذر الشقاق بين الصليبيين القدامى الذي كان لهم علاقات قوية معه وبين المعادين له وهم الصليبيين الجدد, وكان معين يهدد الصليبيين بانه يرغب بدخول سيف الدين ونور الدين دمشق,ولكن مع ذلك كله حصار الصليبيين دمشق خمسة أيام ثم انسحاب الألمان وبعدهم الفرنسيين

ويقول ول ديورانت "هزم كونراد وأصيب بالمرض ورجع مسربلاً بالعار إلى ألمانيا، وعادت إليانور وعاد معظم الفرسان إلى فرنسا، أما لويس فقد بقي في فلسطين عاماً آخر يحج فيه إلى الأضرحة المقدسة"

وهكذا انتهت أكبر حملة صليبية بالفشل الذريع بسبب تضامن الإمارات الإسلامية، كالموصل وحلب مع دمشق.

كانت للحرب الصليبية الثانية نتائج او معطيات على العالم الإسلامي أبرزها :

1 – كسر المقولة لشهيرة التي تقول ان الصليبيين لا يكسرون في الحروب لاسيما بعد النصر الشهير في تحرير الرها سنة 539 هـ على يد الزنكيين ,وبذلك كسرت هيبة الصليبيين .

2 – تطورت الخلافات بين الغرب الصليبي والشرق البيزنطي مما يعكس ضعف بيزنطة اتجاه الدولة العربية الإسلامية.

3 – اتضح للقاصي والداني ان الصليبيين لا يلتزمون بالمعاهدات والمواثيق المبرمة بينهما , وخير دليل على هجومهم على حليفهم الرئيسي في الشرق وهي مدينة دمشق .

4 – ايس الصليبيين من تغير الوضع العام لاسيما بعد عودة الرها الى العالم الإسلامي.

5 – تقارب حكام حلب وحكام دمشق والتي كان يسوده التوتر والعنف قبل تلك المعركة.

معركة حطين الشهيرة وانتزاع القدس من يد الصليبيين

بعد ان حرر عماد الدين زنكي أمارة الرها سنة 539 هـ وتمعن بذلك النصر العظيم سعى جاهدا لتحرير مناطق أخرى ومن تلك المناطق قلعة جعبر التي كان يسطر عليها سالم بن مالك العقيلي وحاصرها سنة 541 هـ ولكن يد الخيانة والغدر نالته

وهو نائم واغتالته, وبذلك يسدل الستار عن ابرز قائد ظهر في النصف الأول من ذلك القرن في الدولة العربية الإسلامية الذي أبكى جموع كثيرة من الصليبيين , وبعد مقتله انقسمت دولته الى قسمين الأول إمارة الموصل بقيادة سيف الدين ابلغاري والثاني إمارة حلب بقيادة نور الدين محمود, وهنا ظهرت شخصية عسكرية جديدة وهو اسد الدين شيركوه , اذ التحق بنور الدين محمود وقد انتقل هو وأسرته من قلعة تكريت التابعة لإمرة والموصل في عهد عماد الدين زنكي الى حلب ,وكان من بين افرد اسرته القادمة من تكريت القائد صلاح الدين الايوبي ذلك الطفل اليتيم الذي تربى بين احضان عمه اسد الدين شيركوه .

بعد ان فقد الصليبيين امارة الرها فكره بدمشق ومصر, اذ فشلت حملتهم الثانية باحتلال دمشق ثم اتجهت أنظارهم الى مصر لانها مدينة عريقة, وذات اقتصاد عالي ,وتطل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر, وتربط ثلاثة قارات اسيا افريقيا اوربا.

وعانت الدولة الفاطمية في الفترات الاخيرة من ضعف وانقسام سياسي عالي جدا لاسيما بين الوزير الفاطمي ضرغام (ذات التأييد العالي للصليبيين) والوزير الفاطمي الاخر شاور(ذات التأيد لنور الدين محمود زنكي صاحب حلب) اذ لجاء شاور الى نور الدين محمود وطلب منه إرجاعه الى الوزارة مقابل الاعتراف بتبعيته لحلب و ان يدفع له بعض المال ,وأرسل نور الدين جيش قوي بقيادة اسد الدين أعيد الوزير شاور الى منصبة, ولكن شاور أعاد تحالفه مع الصليبيين مرة اخرى.

اصبح صلاح الدين الايوبي وزيرا في امارة حلب بعد عمه اسد الدين وهنا ظهرت شخصية صلاح الدين الايوبي, واستغل الظروف وقضي على الدولة الفاطمية سنة 567هـ/1171 وعيد مصر إلى أحضان الخلافة العباسية, وبذلك أصبحت مصر تابعة بشكل رسميا الى إمارة نور الدين محمود في بلاد الشام .

وكان صلاح الدين قد رتب جيشه ونظمه تنظيما عاليا وضبط الجبهة الداخلية , وسيطرة على حلب والموصل وكانت تعد تلك المناطق منطلق رئيسي لصلاح الدين الايوبي لتحرير بعض الحصون والموانع قبل التوجه الى القدس التي كانت تعد هدفه الرئيسي , كما اهتم صلاح الدين بإنشاء اسطول بحري قوي لانه كان متوقع ان الحرب الاسلاميه الصليبية سوف تتحول من البر الى البحر قبل ان تبدء في البر وقد حثه الخليفة العباسي على أقامة الأسطول وقال "ومع هذا فلا بد لك من أسطول يكثر عدده، ويقوي مدده، فإنه العمدة التي يستعين بها كشف الظلماء" .

كما حصن صلاح الدين المدن الساحلية خوفا من هجمات الصليبيين المحتملة عليها.

وقد واجه صلاح الدين بعض المشاكل المتكررة عبر عمله المتواصل في تنظيم جيشه ومنها تعرضات ملك الكرك ارناط رغم قيام معاهدات ومواثيق بينه وبين صلاح الدين الا انه لم يلتزم ارناط بها , وقد هدر القائد صلاح الدين دمه ان امسك به وبالفعل امسك به صلاح الدين وقتله .

وكانت قسم من قوات صلاح الدين الايوبي قد اشتبكت مع الْفِرِنْجُ فِي جَمْعٍ مِنَ الداوية والاستارية وَغَيْرِهِمَا عند صفورية بقيادة مظفر الدين كوكبري وقد كبدت قوات صلاح الدين القوات الصليبية خسائر فادحة شجعت على أثرها القائد صلاح الدين لقتال الصليبيين .

وبعد ذلك استعد صلاح الدين لخوض المعركة الرئيسية ضد الصليبين وتحرير بيت المقدس فراسل اغلب الدول الإسلامية وحثها على القتال وقام بالاجراءات المناسبة لحماية الجيوش القادمة, اذ حمي الجيش المصري القادم في منطقة الكرك والشوبك ووادي عربة الى ان وصل الجيش المصري الى بلاد الشام .

وفي مطلع 583 وصلت قوات عربية كثيرة من الموصل وحلب ومصر ومناطق أخرى الى مدينة صفورية والتي تجمعت فيها القوات الصليبية, " وساروا جميعا إلى صفورية, جمع صلاح الدين أمراءه واستشارهم فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء وان يضعف الفرنج بشن الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة فقال له بعض أمرائه الرأي عندي أننا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه, فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار وأقبل يريد قتال المسلمين والرأي أن نفعل فعلا نعذر فيه ونكف الألسنة عنا فقال صلاح الدين الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد ثم رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر سار حتى خلف طبرية وراء ظهره وصعد جبلها وتقدم حتى قارب الفرنج فلم يرى منهم احدا ولا فارقوا خيامهم فنزل وأمر العسكر بالنزول فلما جنه الليل جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ونزل جريدة إلى طبرية وقاتلها ونقب بعض أبراجها وأخذ المدينة عنوة في ليلة ولجأ من بها إلى القلعة التي لها فامتنعوا بها وفيها صاحبتها ومعها أولادها فنهب المدينة وأحرقها فلما سمع

الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبرية وملكه المدينة وأخذ ما فيها وإحراقها وإحراق ما تخلف مما لا يحمل اجتمعوا للمشورة فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية فقال القمص: إن طبرية لي ولزوجتي وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل- - - وفيها زوجتي وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديما وحديثا ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة وإذا أخذا طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقنا وعاد عنها أخذناها وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن اوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها ونفتك من أسر منا" .

وجرت المعركة بين الصليبيين والمسلمين فنسحب صلاح الدين لايوبي من طبرية وكان هدفه هو سحب القوات الصليبية لمناطق هو يختارها وتصلح للقتال وتكون لصالح للمسلمين ,اذ اختار صلاح الدبن مكانا يوفر للمسلمين الحماية والماء ويحرم الصليبين من ذلك , واشتبك المسلمين مع الصليبيين عندما حاولوا الوصل إلى الماء, وقام بعض المسلمين بحرق الاحراش , فاصبح الصليبيين بين نار صلاح الدين ونار الاحراش المحترقة ,وقاتل كل من الطرفين حتى كتب النصر للمسلمين في معركة حطين وكانت تلك المعركة في 20 من ربيع الاخر سنة 583 /4 تموز 1187 م .

وكان سبب خسران المعركة أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات وازدادوا عطشا وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين وأسروا أيضا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية وكان من أعظم الفرنج شأنا وأسروا أيضا جماعة من الداوية وجماعة من الإسبتارية وكثر القتل والأسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن انهم أسروا واحدا ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا - - - فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده البرنس صاحب الكرك وأجلس إلى جانبه وقد اهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب , فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه وعدد عليه غدراته وقام إليه بنفسه فضرب رقبته وقال كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به إحداهما لما أراد المسير إلى مكة

والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدرا فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت فرائص الملك فسكن جأشه وأمنه, وأما القمص صاحب طرابلس فإنه لما نجا من المعركة وصل الى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياما قلائل حتى مات غيظا وحنقا مما جرى على الفرنج خاصة وعلى دين النصرانية عامة بعد معركة حطين كان على صلاح الدين ان يحرر المدن الساحلية حتى يقطع الصلة بين اوربا والجيش الصليبي المتواجد في القدس وبالفعل توجه الى اسوار عكا ففتحها وفتح صيدا وبيروت وجبيل وصرفند وبقيت صور وعسقلان وطرابلس وبيت المقدس بيد الصليبين .

وبعد ان حرر عسقلان اتجه الى القدس وحاصرها ودارت معركة قوية قال عنها ابن الاثير (ت: 630 هـ)" وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا وحتما واجبا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون" , ثم اشتدت ذروت المعركة حتى أيقن الصليبيين ان لا مقاومة لهم بالمسلمين واستلم الصليبيين وفتح بيت المقدس أبوابه بوجه المسلمين في 27 رجب 583 هـ /2 تشرين الاول 1187 م.

ثالثا: الحرب الصليبية الثالثة(1189 – 1192 م/ 585 – 588 ه-)

بعد معركة حطين الشهيرة كان قد احتفاظ المسيحيين ببعض المدن الاسلامية مثل صور وأنطاكية وطرابلس قد بقي في قلوبهم إثار من الأمل في إرجاع بيت المقدس الذي حرره صلاح الدين(583 هـ), وكانت الأساطيل الإيطالية لا تزال تسيطر على مياه البحر المتوسط، متأهبة لنقل المحاربين الصليبيين, وكان من كبار القادة الصليبيين القادمين الملك فردريك الأول بربروسا ملك ألمانيا, الذي قاد القوات الألمانية وهو في السبعين من عمره، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد ملك انجلترا، والذي كان قائدًا للجيوش الأنجلو-نورمانية والأكويتانية، فقد كان أبرز القادة الثلاثة، واشتهر باسم ريتشارد قلب الأسد، وعلى الرغم من هذا, فإن هذه الحملة لم تنجح سوى في استرداد عكا بعد معارك مضنية وعنيفة .

ارسل البابا جريجوري الثامن عدد من الدعاة الى اوربا يدعهم ويحثهم على قتال المسلمين ويهددهم من لم يشترك بالحرب بالحرمان والطرد من الكنيسة , ووعدهم بغفران الذنوب ,وخاطب ملكي فرنسا وبريطانيا وحثهما على الاشتراك في الحملة وقد

تناسى المشاكل التي حدثت بينهما وقررا الاشتراك في الحرب وطلبا من رعاياهما الانخراط في حرب المسلمين ,وان من لم يشترك في الحرب يدفع ضريبة العشر والتي سميت بـ (عشور صلاح الدين) في اوربا .

وذهب وليم كبير أساقفة صور إلى أوربا، وأخذ يروي في الاجتماعات التي تعقد في إيطاليا وفرنسا وألمانيا قصة سقوط بيت المقدس، ولما قدم إلى ألمانيا تأثر بدعوته فردريك بربروسا إلى حد دفع الإمبراطور العظيم وهو في سن السادسة والسبعين إلى الزحف بجيشه من مدينة فوره 1189 م / 585 هـ ، وحياهُ العالم المسيحي كله وخلع عليه اسم موسى الثاني الذي سيشق الطريق إلى الأرض الموعودة, ولما عبر الجيش الجديد مضيق الهلسبنت عند غاليبولي، واتخذ إلى أرض فلسطين طريقاً جديداً، كرر أخطاء الحملة الصليبية الأولى ومآسيها, واقتفت أثره الكمائن التركية وأزعجته، وقطعت عنه المؤن، فمات مئات من رجاله جوعاً، ومات فردريك ميتة غير شريفة إذ غرق في نهر سالف الصغير في قليقية 1190 م/ 586 هـ ، ولم ينج من جيشه إلا جزء قليل انضم إلى حصار عكا .

وبموت الإمبراطور فردريك بربروسا حلت بالألمان كوارث كثيرة فقد اختلفوا منذ البداية حول من يخلفه في قيادة الحملة الصليبية الألمانية، حيث مال بعضهم إلى تولية ابنه فردريك السوابي، بينما مال بعضهم الاخر إلى تولية أخيه فردريك السوابي وكان أكبر فردريك بربروسا , حل بالألمان التفكك والضعف بعد موت فردريك بربروساً وتفرق الألمان بعد موت ملكهم فمنهم من عاد إلى أوروبا، ومنهم من سار مع الأمير فردريك السوابي الذي خلف والده في قيادة الجيش الألماني، وعند مسير بقايا الحملة إلى أنطاكيا حل بهم وباء شديد ذهب ضحيته كثيرا من رجالهم ووصلت البقية الباقية إلى أنطاكيا وما إن وصل الألمان إلى انطاكيا حتى نقلب عليهم صاحبها بوهيمند الثالث وثقلت وطأته عليهم، وطمع في الاستيلاء على أموالهم وعتادهم، فأشار عليهم بالمسير إلى حلب وحسن لهم طريقها إلا أن فردريك السوابي لم يستجب لمشورة بوهيمند وإنما طلب منه أن يعطيه قلعة انطاكيا ليودع بها ماله وخزائنه وأثقاله فوافق بوهيمند على ذلك, على أمل أن يفوز بما يودع فيها من الأموال والعتاد وكان الأمر على ما أراد، فإن الألمان لما فارقوا انطاكيا لم يعودوا إليها ثانية، ففاز بوهيمند بكل ما أودعوه فيها.

وفي الوقت نفسه تعرضت فرقة من الألمان لكارثة أخرى كان لها أثر كبير في إضعاف نفسياتهم فقد اتجهت هذه الفرقة الألمانية صوب بغراس وهم يظنون أنها لا

تزال في أيدي اخوانهم الصليبيين، وما أن وصلوا إليها حتى فتحت أبواب القلعة وهجم المسلمون على الألمان فاستولوا على ما معهم من الأموال والأسلحة والعتاد، وقتلوا منهم وأسروا العدد الكثير، كما خرج أيضاً بعض سكان حلب وتفرقوا في طريق الألمان وأخذوا يتخطفونهم، فأسروا منهم أعداداً باعوهم في الأسواق بأثمان زهيدة ، كما أن ذلك يدلنا أيضاً على مدى تلك العزلة التامة التي فرضها صلاح الدين على الصليبيين ببلاد الشام، بعد إحكام سيطرته على مدن الساحل، حتى أن الصليبيين في الغرب الأوروبي لم يكن في مقدورهم التمييز بين المدن والقلاع التي استولى عليها صلاح الدين وبين التي لا تزال في أيدي إخوانهم الصليبيين في الشرق .

اما إنكلترا فقد تقدمها الملك ريتشارد الأول الملقب "قلب الأسد" قد توج من زمن قريب ملكاً على إنجلترا وهو في الحادية والثلاثين من عمره بعد ان توفى هنري الثاني ملك إنكلتر في عام 585هـ/1189م وخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد دوق بواتو، فعقد صلحاً مع الملك الفرنسي، وتجهز للقيام معه بحملة مشتركة إلى الشرق، فصمم هذا الملك على أن يجرب حظه مع المسلمين, وإذ كان يخشى أن يغير الفرنسيون في أثناء غيابه على الأملاك الإنجليزية في فرنسا، فقد أصر على أن يصحبه فليب أغسطس، ملك الفرنسا، وكان وقتئذ شابا في الحادية والعشرين من عمره، وأبحر جيش فليب من مدينة جنوى على أن يلتقي الجيشان في صقلية 1190 م /586 هـ، فلما التقيا فيها شجر النزاع بينهما واستسلما للهو وقضيا في نزاعهما ولهوهما نصف عام, أبحر بجيشه‌ما إلى فلسطين, ثم أصيب فليب أغسطس بالحمى فعاد إلى فرنسا وترك وراءه قوة فرنسية ضخمة، وأصبح ريتشارد القائد الوحيد للحملة الصليبية الثالثة .

وأما وليم الثاني ملك صقلية فقد بادر بإرسال أسطول في سنة 585هـ/1189م يشتمل على ستين قطعة بها عشرة آلاف مقاتل أسند الأسطول إلى مدينة صور ثم رجع إلى طرابلس ولم ينفع الصليبيين بشيء لأنه مابه من الميرة لم تكن تكفي ما عليه من الرجال .

ومن أهداف الحملة الصليبية الثالثة جاءت لمساندة الملك جي لوزجان الذي اسره صلاح الدين الايوبي وأطلق سرحه بعد ان اخذ التعهدات والمواثيق بعدم محاربة المسلمين بعد ذلك الوقت , ولكن خرق كل تلك العهود والمواثيق وبدء بمناشدة الغرب بمحاربة المسلمين ولبي نداءه كل من انكلترا وفرنسا .

ومن تخبطهم ومحاولت التخلص من الري العام الصليبيي ,عقدوا مجلساً للنظر فيما يجب أن يفعلوه، فقرر هذا المجلس أن يتخلوا عن بيت المقدس ويزحفوا الى القاهرة البعيدة عنهم بنحو 250 ميلاً ,وكان ريتشارد قد سئمت نفسه هذه الفعال، وملأ اليأس قلبه، فانسحب إلى عكا وأخذ يفكر في العودة إلى إنجلترا ,ولكنه لما سمع أن صلاح الدين عاود الهجوم على يافا، وأنه استولى عليها بعد يومين لا أكثر، أبى عليه كبرياؤه أن ينكص عن غرضه، وبعث في نفسه روحاً جديدة، وأقلع من فوره إلى يافا مع من استطاع أن يحشدهم من الجنود .

وقد جمع الصليبيين ما يقارب 20000 الف جندي جميعهم من الذي فك أسرهم صلاح الدين في المعركة حطين وبعد الافراج عنهم قرروا محاصرة عكا, استنجد صلاح الدين الايوبي بالعسكر في الموصل والجزيرة ومصر وسنجار وحلب,وقد اصبحت القوات الصليبية ما يقاب بعد ان تجمعت 30000 الف مقاتل ,وحاصر مدينة عكا سنتين دخل بعدها الصليبيين عكا ويمكن ان نجمل اسباب دخول الصليبيين لعكا بمايلي:

1 – تواطؤ سكان عكا المسحيين مع الصليبيين المحاصرين للمدينة ونقل كل ما يجري من داخل المدينة الى الصليبيين.

2 – عدم فهم اللغة الصليبية لذا كان كل ما يقع أسير صليبي لا يفهم التعامل معه لذ يكون الجهد الاستخباراتي ضعيف جدا.

3 – دعم الكنيسة المستمر للصليبيين ساعد في احراز نصر الصليبيين في النهاية.

وقد قتل إعدادا كثيرة من المسلمين على يد الصليبيين عند دخولهم مدينة عكا دون ان يفرقوا ما هو طفلا او امرأة او شيخا او شابا .

ومنهم من يقول ان الهدف الرئيسي لهذه الحملة هو مصر, فقد كانت هناك أسباب عديدة تحفز الصليبيين على الهبوط من دلتا النيل بدلًا من ضفاف نهر الأردن، وأهم هذه الأسباب، هو الرغبة الجامحة من جانب المدن التجارية الإيطالية –الممول الرئيسي للحملة– في السيطرة على السوق التجارية الرئيسية في حوض المتوسط وضرب المنافسة

وهنا لابد من القول لو ان صلاح الدين احتفظ او قتل من اسرى في معركة حطين لما حدث ما حدث.

واخيرا مات في عام 1193م /589 هـ ولم يتجاوز سنه الخامسة والخمسين.

رابعا: الحرب الصليبية الرابعة 1202 – 1204م/ 599 - 601 هـ

أفلحت الحرب الصليبية الثالثة في أخذ عكا ولكنها لم تفلح في الاستيلاء على بيت المقدس، وكانت هذه نتيجة ضئيلة ميئسة وضعيفة لم يكن يصبو له الصليبيين .

لذا يمكن القول ان الحرب الصليبية الثالثة فشلت لاسيما بعد غرق بربروسا، وفرار فيليب أغسطس، وإخفاق ريتشارد، كل هذا قد حطم كبرياء أوربا، وأذلها، وأضعف ثقة العالم المسيحي بها, ولكن موت صلاح الدين الايوبي المبكر سنة 589 هـ، وانقسام دولته بعد وفاته، بعث في قلوب العالم المسيحي آمالاً جديدة، فلم يكد إنوسنت الثالث يجلس على عرش البابوية 1198 – 595/1216 – 613 هـ، حتى أخذ يطالب العالم المسيحي ببذل مجهود جديد، لقيام بحرب صليبية رابعة, وكانت نتيجة الدعوة في البداية تميزت بالإقبال الضعيف, وواصل إنوسنت الثالث دعوته، وقال إن حملته هدفها الاول مصر وتم الاستعانة بالأسطول الايطالي مقابل ابرام اتفاق تحصل بموجبه المدن الايطالية على 85000 مارك , والاستيلاء على ما يحتله الصليبيين من المدن الإسلامية بالمناصفة .

ووافقت البندقية بعد مساومات طويلة على أن تعد ما يلزم لنقل 4500 من الفرسان والخيول، و9000 من أتباعهم، وعشرين ألفاً من المشاة، ورضيت أيضاً أن تمدهم بخمسين سفينة حربية بشرط أن تختص البندقية بنصف الغنائم الحربية, ولم يكن عزم البندقية مهاجمة مصر، فقد كانوا يكسبون منها النقود الكثيرة في كل عام بما يصدرونه إليها من الخشب، والحديد والسلاح، واستيراد العبيد, ولم يكونوا يريدون أن يخاطروا بضياع هذه التجارة بالاشتراك في الحرب .

وتجمعت الجيوش الجديدة في مدينة البندقية في صيف 1202م /599هـ.

وجاء معظم الصليبيين من فرنسا كما جرت بذلك العادة لأغلب الحرب الصليبية السالفة ,وكان قد طلب من كل رجل أن يأتي معه بقدر من المال يتفق مع موارده حتى يتجمع للحملة مبلغ الـ 85000 مارك التي لابد من أدائها للبندقية تنفيذاً للشروط المتفق عليها معها.

ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد تعلمت شيئاً من الحروب الصليبية السابقة, ذلك أن هذه الإمبراطورية لم تقدم للصليبيين معونة تذكر، ولكنها حصلت منهم على كسب عظيم, فقد استردت الجزء الأكبر من آسيا الصغرى، وكانت تنظر بعين الرضا

والاطمئنان إلى ما حل من الضعف بالغرب وبالإسلام في كفاحهما للاستيلاء على فلسطين .

وقد نهى البابا إنوسنت الثالث الصليبيين عن مهاجمة القسطنطينية وأنذرهم بالحرمان إذا فعلوا, ويلاحظ من ذلك ان المهاجمين الصليبين لم يكن لهم انضباط عالي سواء كان هذا الانضباط عسكري او ديني لذا سارعوا بالهجوم على أبناء جلدتهم وأبناء ديانتهم جاعلين أمام أعيونهم العامل الاقتصادي أكثر تأثير من العامل الديني الذي روج له رجال الدين, ورفض بعض الأشراف أن يشتركوا في هذه الحملة، ورأى قسم من الجيش أنه في حل من يمنه التي أقسمها بالاشتراك في الحملة الصليبية وعاد إلى أوطانهم، ولكن فكرة الاستيلاء على أغنى مدينة في أوربا – القسطنطينية – ظلت مستحوذة على الكثيرين من الصليبيين يصعب عليهم مقاومتها، ولهذا فإن الأسطول العظيم المكون من 480 سفينة أقلع في عام 1202 م/ 599 هـ وسط مظاهر الابتهاج والتهليل بينما كان القساوسة الواقفون عند أبراج السفن الحربية ينشدون نشيد تعال أيها الخالق الروح Veni Creator Spilritus ، ووقف هذا الأسطول الضخم أمام القسطنطينية في الرابع والعشرين من شهر يونيه عام 1203 م/ 600 هـ .

وقد تذرع الصليبيين بأمور لا علاقة لهم بها وانما جعله سبب لدخولهم الى القسطنطينية ومنها أرسل المهاجمون بلاغاً نهائياً إلى الإمبراطور ألكسيوس طلبوا فيه: أن يرد الإمبراطورية إلى الأخ الأعمى أو إلى ألكسيوس الصغير، فلما رفض ألكسيوس الثالث هذا الإنذار نزل الصليبيون إلى البر، بعد مقاومة ضعيفة، أمام أسوار المدينة، وفر ألكسيوس الثالث إلى تراقيا، وأخرج اسحاق أنجليوس من سجنه وأجلسوه بأنفسهم على العرش، وأرسلوا باسمه رسالة إلى الزعماء اللاتين يقول فيها إنه ينتظر ابنه ليحييه. وبعد أن استخلص الصليبيون وعداً من اسحاق بارتباطه بما تعهد لهم به ولده، توج ألكسيوس الصغير إمبراطوراً بالاشتراك مع أبيه, وحدث في هذا الأثناء أن رأى بعض الجنود اللاتين جماعة من المسلمين يصلون في مسجد مقام في مدينة مسيحية، فثارت ثائرتهم وأشعلوا النار في المسجد، وقتلوا المصلين, وظلت النار مشتعلة ثمانية أيام وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال، وأحالت جزءاً كبيراً من القسطنطينية رماداً وأنقاضاً,وقام أمير من البيت المالك وتزعم ثورة من أهل المدينة وقتل ألكسيوس الرابع، وأعاد اسحاق إنجليوس إلى السجن، وجلس على العرش وسمى باسم ألكسيوس الخامس .

واستولوا الصليبيون على ما وجدوه فيها من الكنوز, واقتحم الجنود البيوت، والكنائس، والحوانيت، واستولوا على كل ما راقلهم مما فيها, ولم يكتفوا بتجريد الكنائس مما تجمع فيها خلال ألف عام من الذهب والفضة والجواهر، بل جردوها فوق ذلك من المخلفات المقدسة،و بعثت هذه المخلفات بعدئذ الى أوربا الغربية بأثمان عالية، وكان البنادقة، وهم الذين يألفون المدينة التي كثيراً ما رحبت بهم تجاراً، يعرفون أين توجد أعظم كنوزها، فاستعانوا بذكائهم الفائق على أعمال التلصص، وامتدت أيديهم إلى التماثيل، والأقمشة، والأرقاء، وبددت في أثناء هذا السلب والنهب لمحتويات دور الكتب وأتلفت المخطوطات الثمينة أو فقدت، واندلعت ألسنة النيران بعدئذ مرتين في المدينة فالتهمت دور الكتب والمتاحف كما والتهمت الكنائس والمنازل، فضاعت مسرحيات سفكليز ويوربديز التي ظلت حتى ذلك الوقت باقية بأكملها ولم ينج منها إلا القليل، وسرقت آلاف من روائع الفن أو شوهت أو أتلفت، وجعلوا الفرنسية لغتها الرسمية, وقسمت الإمبراطورية البيزنطية إلى أملاك إقطاعية يحكم كلاً منها أمير نبيل إقطاعي, وكانت البندقية حريصة على السيطرة على طرق التجارة وعاد معظم الصليبين إلى أوطانهم مثقلين بالغنائم، وأقام بعضهم في الأملاك الجديدة، ولم يصل منهم إلى فلسطين إلا حفنة قليلة، لم تعمل فيها عملاً ما .

اما اسباب توجه الصليبيين نحو القسطنطينية متخلين عن بيت المقدس فهي :

1 –العداء القديم الذي بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البيزنطية ذات الاختلاف المذهبي اذ ان الرومان على الكنيسة الكاثوليكية وبيزنطة على الكنيسة الارثودوكسية .

2 – لعب العامل الاقتصادي دورا رئيسيا في دخول الصليبيين مدينة القسطنطينية ذات الاقتصاد العالي والعمران الباهي والثقافة الزاهية الي هيئت لعاب الجيوش الصليبية في دخولها .

3 – الرغبة العالية في ضم الكنيسة الشرقية الى الكنيسة الغربية ومحاولة إلغاء دور الكنيسة الشرقية.

4 – تبين ان الصليبيين ليس لهم المقدرة على جمع المال المتفق علية مع الايطاليين والبالغ 85000 مارك , لذا اغتنم الايطاليين تلك الفرصة ودخلوا القسطنطينية

إن سقوط القسطنطينية على مثل هذه الصورة كان بمثابة كارثة على فكرة الحروب الصليبية، فمن قبل كان الإعلان عن ميلادها موجهاً لحرب "الكفار" وقصد بهم البابا حينذاك المسلمين، أما الآن فإن نطاق "الكفار" امتد ليشمل المخالفين لكنيسة روما في المعتقدات الدينية، ويلاحظ هنا أن أنوسنت الثالث شهد عهده تطور الصليبيات بصورة ملفته للانتباه،وذا دل ذلك بجلاء على أن الحركة الصليبية ليست ضد المسلمين فقط بل ضد كل من يناصب للبابوية العداء، وكل من يرفض الخضوع لسلطان كنيسة روما سيدة الكنائس .

وبذلك يمكن القول ان الحرب الصليبية الرابعة لم تحقق أهدافها في العالم الإسلامي وانما حققت هدفها على أبناء جلدتها وأبناء ديانتها.

خامسا: الحرب الصليبية الخامسة 1217 – 1218 م / 614 – 615 هـ

كان الهدف الرئيسي من هذه الحملة هو مصر بعد ان انحرفت الحرب الصليبية الربعة من مصر الى القسطنطينية , اذ لم تيأس البابوية من التقدم على مصر, فقد كانت هناك أسباب عديدة تحفز الصليبيين على احتلال دلتا النيل بدلاً من ضفاف نهر الأردن، وأهم هذه الأسباب، هو الرغبة الجامحة من جانب المدن التجارية الإيطالية –الممول الرئيسي للحملة– في السيطرة على السوق التجارية الرئيسية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، أما السبب الثاني فكان نابعاً من المذهب السياسي العسكري الجديد للصليبيين، والذي كان يرى في القضاء على مصر، أو تحييدها على الأقل، ضماناً للوجود الاستعماري الاستيطاني الصليبي,ولابد من القول ان من ابرز أهداف الحرب الصليبية الخامسة هو استرداد الشرف العسكري والهيبة اللذين فقدتهما المملكة اللاتينية فوق تراب حطين .

دعت البابوية بقيادة إنوسنت الثالث و هونربوس الثالث في أثناء انعقاد مجلس لاتران الرابع دعوة أخرى إلى الشعب الاوربي و دعاهم الى حرب صليبية خامسة، وكانت هذه المرة مصر بعد ان أخفقت البندقية تنفيذ الهجوم على مصر في الحملة الرابعة, وغادرت الحملة الصليبية الخامسة بلاد ألمانيا، والنمسا، والمجر في عام 1217 – 1218 م / 614 – 615 هـ بقيادة أندرو Andrew ملك المجر، وكانت جيوشه قد تجمعت عند الملك حنا ملك عكا وهو مقر رمزيا لبيت المقدس ثم بحلول سنة 1281 م/ 615 هـ تحركت القوات الصليبية من عكا إلى دمياط ,

وأفلحت في الوصول إلى دمياط الواقعة على مصب النيل الشرقي, وسقطت المدينة في أيديهم بعد ان حاصرها الصليبيين عاماً كاملاً ، ولم يكن حال دمياط أحسن من حال المدن التي سبقتها اذ قام الصليبيين بعد احتلالها بقتل وسلب ونهب وحرق كل الأماكن العامة والخاصة,كما حولوا جامع المدينة إلى كنيسة, وقد بذل الملك العادل وابنه الملك الكامل محمد كل ما يمكن عمله لحماية مدينة دمياط من هجوم الصليبيين ,وعرض عليهم الملك الكامل الصلح على أن يسلم لهم الجزء الكبير من بيت المقدس، ويطلق سراح الأسرى المسيحيين، ويعيد الصليب الحق, وطلب الصليبيون أن يتقاضوا بالإضافة إلى ذلك كله غرامة حربية، ولكن الكامل رفض هذا الطلب، وبدأت الحرب من جديد، بعد ان حاول الصليبيين احتلال القاهرة عاصمة الدولة الأيوبية , ومن سوء حظ الصليبيين أنهم نزلوا في منطقة يحطها بها الماء من ثلاث جهات وهي تفيض بالماء أثناء فيضان نهر النيل, وقد فرح المسلمين باختيار الصليبيين لهذا الموقع ,لاسيما انهم وصلوا في اوئل اب 1221 م/ 618 هـ أي في وقت فيضان النيل وغرق تلك المساحات من الأراضي , وهنا حشد الملك العادل كل الإمكانيات وقرر عدم عودة الصليبيين إلى دمياط ومحاصرتهم في الدلتا ولحق به اخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وأخيه الأخر الملك الاشرف صاحب الجهات الشرقية من الدولة وقوات من حلب وحماة وبعلبك وحمص , ووقف الجميع الى جانب الملك الكامل في معسكره الجديد الذي بناها في المنصورة وقد امر الملك الكامل بقطع السدود, وغرقت أكثر المناطق المحيطة بهم, وأيقنوا الصليبيين بالهلاك , فعرضوا الصلح والانسحاب من مصر والعودة إلى أوربا ووافق الملك الكامل , وبذلك سارت الامر ليس كما يشتهي الصليبيون، فلم يأتهم ما كانوا ينتظرون من المدد ,ثم عقدت هدنة 1221 م/ 618 هـ واهم شروطها :

1 –عقد هدنة لمدة ثماني سنوات.

2 – جلاء الصليبيين عن دمياط وعودتها إلى المسلمين، وجلاء جميع الجنود المسيحيين عن أرض مصر.

3 – أطلاق سراح الأسرى من الجانبين .

4 – تبادل الرهائن بين الجانبين إلى ان يتم تنفيذ الجلاء سلميا.

وعزا الصليبيون هذه المأساة إلى فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا وملك ويطاليا الشاب, ذلك أنه أقسم يمين للصليبيين في عام 1215م/612 هـ، ووعدهم أن ينضم إلى الجيوش المحاصرة لدمياط، ولكن المشاكل السياسية القائمة وقتئذ في إيطاليا، مضافاً إليها في أغلب الظن ضعف إيمانه، لم يمكناه من أن يبر بقسمه ووعده .

وهنالك أسباب لسقوط مدينة دمياط منها:

1 – كثرة الصليبيين لمهاجمين لمدينة دمياط, وكثرة الإمدادات البشرية والمادية من قبل الكنيسة لهم.

2 – محاولة اغتيل الملك العادل إثناء التصدي للصليبيين من قبل احد القادة العسكريين وهو عماد الدين احمد بن على المسمى بابن المشطوب.

3 – انقسامات البيت الأيوبي بعد وفاة الملك العادل أدى الى تشتت القوى الإسلامية.

إما أسباب انتصار الملك الكامل ودخوله مدينة دمياط وهزيمة الجيش الصليبي ذات العدة والعدد بعد دخوله دمياط فهي :

1 – الخطط العسكرية الجيدة، التي وضعها الكامل محمد ونفَّذها جنوده، على الرغم من تراجعه عنها بعض الوقت نتيجة مؤامرة ابن المشطوب التي أتاحت للقوات الصليبية العبور إلى الضفة الشرقية وحصار دمياط، كما تمكَّن من تطويق الصليبيين بحراً بواسطة السفن التي سيَّرها في بحر المحلة وضرب مقدمة ومؤخرة الأسطول الصليبي، بالإضافة إلى حسن اختيار الوقت المناسب لتفجير السدود والجسور، وإغراق السفن الصليبية.

2– تعاون الملوك الأيوبيون فيما بينهم في صد الصليبيين، فقد أدّى المعظم عيسى دوراً بارزاً في إحباط مؤامرة ابن المشطوب، ولم يتوانَ لحظة عن مساعدة أخيه، وتولىَّ الضغط على الصليبيين بمهاجمة ممتلكاتهم في بلاد الشام، وهدم القلاع الإسلامية خشية من استيلاء الصليبيين عليها، وتركها في حالة يتيسر على المسلمين استردادها إذا ما سقطت في أيدي هؤلاء، وكذلك فعل الأشرف موسى.

3– دعم الجبهة الإسلامية بالمال والرجال والعتاد وإقامة التحصينات الكافية في الأماكن المناسبة.

5– جهل الصليبيين بالوضع الطبيعي لأرض مصر، والخطأ الذي ارتكبوه باختيار طريق الزحف نحو القاهرة، وهو الطريق المحاذي لفرع النيل الشرقي، على الرغم من علمهم بمواعيد ارتفاع وانخفاض مياه، إذ كان يعترض هذا الطريق الكثير من النزع والقنوات المتفرعة التي شكَّلت كمائن أوقفت تقدم جيشهم.

6– الخلافات التي نشبت بين أفراد الجيش الصليبي حول تقسيم الغنائم وقد أدّت إلى صدام مسلح بينهم.

7- محاولة البابا هونوريوس الثالث الهيمنة على الحملة حتى لا تتعرض لما تعرضت له الحملة الصليبية الرابعة لذلك أنه منح مندوبه صلاحيات مطلقة تعلو على صلاحيات القادة الزمنيين والخبراء العسكريين.

8- عدم اختيار الوقت المناسب للقيام بالحملة، إذ أن الروح الصليبية تراجعت لدى الأوروبيين بشكل عام، ولم يعد لديهم الحماس الكافي لانخراط بالحملة .

اما نتائج الحملة الصليبية الخامسة فهي عديدة من أهمها :

1- كشفت بجلاء أن الصليبيين لديهم الإصرار على التوسع جنوباً في مصر.

2- كان الهدف من غزو مصر تحويل مسلمي المنطقة إلى مسيحيين يتبعون الكنيسة الأم في روما، وبذلك يكونوا قد استهدفوا الهوية الدينية ذاتها.

3- تلك الحملة كشفت لنا عن العلاقة الأبدية بين مصر والشام إذ أن كلا منهما عمق استراتيجي للآخر، وعندما تعرضت أرض الكنانة للخطر قدم إليها الدعم والعون الحربي من شقيقتها الجغرافية والتاريخية بلاد الشام.

4- كان رد الفعل الإسلامي عظيماً إزاء هذه النتيجة التي أسفرت عنها الحملة الصليبية الخامسة، فكانت فرحة المسلمين عظيمة بعودة دمياط إليهم، خاصة الفقهاء والعلماء والشعراء الذين أخذوا يتبارون في إنشاد قصائد التهاني بهذا النصر الكبير معبرين فيها عن مدى فرحتهم ومدى إحساسهم بأهمية عودة دمياط إلى المسلمين.

سادسا :الحرب الصليبية السادسة 1228 -1229 م/625 هـ -626 هـ

بعد فشل الحرب الصليبية الخامسة سار جان دي برين بنفسه عام 1222م/ 619هـ إلى إيطاليا لمقابلة البابا، ليشرح له ما آلت إليه أوضاع الفرنجة من سوء في بلاد الشام بعد فشل الحرب الخامسة , كذلك التقى الإمبراطور فردريك الثاني، وحثه على القيام بحرب جديدة في الشرق -الحملة السادسة- تنقذ موقف الصليبيين المتدهور، ثم زار فرنسا وإسبانيا لإثارة حماس مليكهما للمساهمة في تخليص بيت المقدس من المسلمين وقد تحسنت مكانة الملك الكامل بعد الانتصار على الصليبيين وخروجهم من دمياط عام 1221م/ 618هـ واكتسب احترام العالم الإسلامي، وفرض سلطنته على الممالك الأيوبيين , وظل البابا نوريوس الثالث يلح

على الإمبراطور فردريك للوفاء بوعده السابقة، وفردريك يتباطأ، وفي عام 1227م/624 هـ ، أراد أن يلبي رغبة البابا، فأبحر من ميناء برنديزي جنوب إيطاليا, على رأس حملة ضخمة ولكن الحمى أصابته،وانتابت صفوف الجيش نوبة مرض مدة قصيرة من الزمن أثناء انتظارهم لعبور البحر، فعاد فردريك لكي يسترد صحته، وأثناء ذلك مات البابا نوريوس الثالث، وتولى البابا جريجوري التاسع ، فاعتقد أن فرديك يتمارض ويتعمد المراوغة فأصدر قرار حرمان من الكنيسة ضده ، لقد فتح قرار الحرمان باب النزاع بين الطرفين الإمبراطور والبابا ولكن الإمبراطور أدرك أن مصلحته تقتضي القيام بحملة على بلاد الشام حتى يفوت على البابا إظهاره في صورة مسيحي عاق، ويبدو أن ظروف الشرق هيأت الجو للإمبراطور القيام بحملته هذه، فإن شخصية الإمبراطور وافقت عقلية الملك الكامل وشخصيته، إذ توثقت العلاقات بينهما في عصر اشتد فيه العداء بين ملوك الصليبيين والمسلمين، وازدادت الحركة الصليبية عنفاً، إلا أن شخصية الملكين وما كان يحيط بهما من ظروف كان لها أثر كبير في توثيق هذه العلاقة الودية .

وعندما اصدر البابا قرارا بطرد وحرمان الإمبراطور فردريك من الكنيسة أصر فردريك وزحف بجيشه في عام 625/1228 هـ ، وهو لا يزال مطروداً من حظيرة الدين، ولما وصل إلى فلسطين لم يلق أية معونة من المسيحيين، فقد عارض هؤلاء عن رجل مطرود من الكنيسة المسيحية, فلما رأى الإمبراطور ما فعلوا به المسيحيين أرسل رسله إلى الملك الكامل، وكان يقود جيش المسلمين في نابلس، ورد عليه الكامل رداً جميلاً، اذ أعجب فخر الدين سفير السلطان بما رآه من معرفة الإمبراطور بلغة العرب، وآدابهم، وعلومهم، وفلسفتهم، وشرع الحاكمان يتبادلان المجاملات والآراء، ولشد ما دهش المسيحيون والمسلمون على حد سواء واتفق الحاكمان على دخول الامبراطور فردريك القدس سلميا, ودخل الإمبراطور القدس يوم 17 /5 /1229 م/ 626 هـ وتوج ملكا وزار القدس وكانت تصرفاته الحسنة قد أثارت المسيحي قبل المسلم اذ ارد قس مسيحي الدخول إلى المسجد الأقصى فزجره الإمبراطور وقال له " انما نحن مماليك السلطان الكامل وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس فلا يتعدى احد منكم طوره " وعندما علم بان مؤذن المسجد الأقصى لم يرفع اذن الفجر ولم يقرأ القران انزعج كثيرا وسأل عن السبب فقيل له:احتراما لمشاعرك فقال للقاضي :" لقد أخطئت بمسلكك هذا,ان غرضنا الأساسي من البقاء في بيت المقدس هو سماع المؤذن وذكر الله ,فهل يجوز ان تغيروا شعائركم ؟ --- لمجرد أرضائي ؟هل تظن انك لو حضرت إلى بلدي سأمنع الكنائس من قرع أجرسها إرضاء لك؟ لا والله " وقد اكرم المؤذن وشجعه على مواصلة عمله.

وقعا في عام 1229 م/626 هـ معاهدة أعطى الكامل بمقتضاها فردريك مدن عكا، ويافا، وصيدا، والناصرة، وبيت لحم، وجميع مدينة بيت المقدس ما عدا الفضاء المحيط بقبة الصخرة المقدسة عند المسلمين. وأجيز فوق ذلك للحجاج المسيحيين أن يأتوا إلى هذا الفضاء ليودوا فيه صلواتهم في موضع هيكل سليمان، وسمح للمسلمين بمثل هذه الحقوق في بيت لحم, ونصت المعاهدة فوق ذلك على إطلاق جميع الأسرى من الطرفين المتعاقدين، وتعهد كلاهما أن يحافظ على السلم عشر سنين وعشرة شهور, وهكذا افلح الإمبراطور الطريد فيما عجز عنه المسيحيون في مائة عام كاملة، والتقت الثقافتان المسيحية والإسلامية فترة من الزمان وهما متفاهمتان، تحترم كلتاهما الأخرى، ووجدتا أن في وسعهما أن يعيشا معاً في صفاء ووئام , ولكن جريجوري التاسع نادى بان تلك المعاهدة سبة للعالم المسيحي، وأبى أن يقرها, ولما رجع فردريك إلى بلاده استولى النبلاء المسيحيون المقيمون في فلسطين على بيت المقدس وكان ذلك بعد أنتها المعاهدة سنة1239 م/ 637 هـ، وعقدوا حلفاً بين القوة المسيحية في آسيا، وبين أمير دمشق المسلم ضد سلطان مصر المسلم 1244م/642 هـ , واستنجد سلطان مصر بأتراك خوارزم، فخف هؤلاء لنجدته واستولوا على بيت المقدس, وبعد شهرين من ذلك الوقت هزم بيبرس المسيحيين في غزة، وحررت مدينة بيت المقدس مرة أخرى في أيدي المسلمين سنة 1244م /642 هـ .

سابعا : الحرب الصليبية السابعة 1248 م/646 هـ

بعد ان طرد الصليبيين من القدس سنة 1244 م/ 642 هـ ارسل بطريرك القدس رسالة إلى الغرب الصليبي يحثهم على استرداد بيت المقدس من يد المسلمين فستجاب لدعوته لويس التاسع ملك فرنسا, وقرر تنظيم الحملة الصليبية السابعة, واستغرق تنظمه ثلاثة سنوات انطلق بعدها سنة 1248 م/ 646 هـ ولبس شارة الصليب، وأقنع نبلاء بلاده أن يحذوا حذوه, ولما حل عيد الميلاد أهدى إلى بعض المسيحيين الذين ظلوا ممتنعين عن الانضمام إلى الحملة أثواباً غالية الثمن نقشت عليها شارة الصليب. وبذل الملك جهده للتوفيق بين البابا إرنوسنت والإمبراطور وفردريك الثاني ملك ألمانيا حتى تلقى الحملة الصليبية تأييد أوربا متحدة, لكن إرنوسنت رفض وساطته، وزاد على هذا الرفض أن بعث راهباً إلى خان المغول

الأعظم يعرض عليه اتحاد المغول والمسيحيين على المسلمين, ورد عليه الخان بان طلب خضوع البلاد المسيحية للمغول, وقد سار لويس على رأس الفرسان الفرنسيين ووصلت الحملة إلى دمياط، وقد سبقت الحملة انباء مؤكد الى الملك الصالح ايوب يخبرونه بوصل حملة جديد , اذ اتصل به الملك الألماني فردريك الثاني صديق الملك الكامل الأيوبي واخبره بقدوم الصليبيين وضرورة الاستعداد لهم ,استعد الملك الصالح ايوب للحرب, واخذ كل الاحتياطات الممكنة على الرغم من مرض الملك الصالح ايوب وبعد معارك حاسمة في المنصورة انسحب المصرين الى دمياط ثم الى خارجها واستولى عليها الصليبيين وحولوا مسجدها الى كنيسة , وكتب لويس التاسع رسالة الى الملك الصالح ايوب جاء فيها "أما بعد فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية، كما أني أقول إنك أمين الأمة المحمدية، وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجل ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلك لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لي بكل الإيمان ودخلت على القسوس والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، ماردني ذلك عن الوصول إليك، وقتلك في أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لي، فيا هدية حصلت في يدي وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ، فيدك العليا ممتدة إلى، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بإسياف القضاء " وقد قرأ الرسالة الملك الصالح ايوب وكتب على ظهرها"أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك، وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه، فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولابد أن تزَّل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك، فهنالك ننسئ بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلون"

وتقابل الجيشان الإسلامي والصليبي وتوفى الملك الصالح أثناء المعركة وقاد الجيش الإسلامي بيبرس البندقداري , وكان فيضان النيل السنوي الذي لم يحسب الصليبيون حسابه حين وضعوا خطة الحملة بدأ في وقت وصول الصليبيين، وغمر البلاد بالماء فأحاط بالصليبيين وحصرهم في دمياط مدة نصف عام واحكم الجيش الإسلامي السيطرة المطلقة عليهم من كل جانب , ولما وصل الجيش الصليبي زحفه، كان الجوع والمرض والفرار، قد أنهكت قوته وأنقصت عدده، وأضعفه اختلال نظامه، ونهزم هزيمة ساحقة عند المنصورة رغم استبساله في الدفاع عن نفسه، وتبدد شمله

وولى الجنود الأدبار، وأسر عشرة آلاف من المسيحيين من بينهم الإمبراطور لويس التاسع نفسه ،وعالجه من مرضه طبيب عربي عندما تمرض، ثم أطلق سراحه السلطان تورانشاه بن الملك الصالح ايوب بعد أن قضى في الأسر شهراً بشرط أن يسلم دمياط ويفتدي نفسه بخمسمائة ألف جنيه فرنسي, ولما أن قبل لويس هذه الفدية الباهظة أنقص منها السلطان خمسها، وقبل نصف الباقي ووثق بعهد قطعه الملك على نفسه أن يؤدي إليه النصف الآخر وسار الملك على رأس فلول جيشه إلى عكا، وأقام فيها أربع سنين ثم الى تونس وعاد في عام 1254 م/ 652 هـ إلى فرنسا وتوفى لويس التاسع سنة 1270 م/ 669 هـ.

واغتنم القائد بيبرس هذه الفرصة فزحف بجيشه على الساحل واستولى على المدن التي احتلها الصليبيين مدينة في إثر مدينة: فحرر مدينة قيصرية 1265م/664 هـ، وصفد 665/1266 هـ ، وبافا 1267 م/ 666 هـ , وإنطاكية1268 م/ 667 هـ .

ثامنا: الحرب الصليبية الثامنة

وثارت حمية الإمبراطور لويس التاسع من جديد في شيخوخته فلبس شارة الصليب مرة أخرى 1267م/ 668 هـ ، وحذا حذوه أبناؤه الثلاثة، ولكن النبلاء الفرنسيين لم يوافقوا على خطته، وأبوا أن ينضموا إليه, ونزل الملك بقواته القليلة في بلاد تونس, وكان يرجو من وراء ذلك أن يحمل أميرها على اعتناق الدين المسيحي، وأن يهاجم مصر من جهة الغرب. ولكنه لم تطأ قدماء أرض إفريقية حتى أصيب بنزلة معوية شديدة ومات على اثر ذلك المرض.

وحلت بالمسيحيين الكارثة الأخيرة حين نهب بعض المغامرين منهم قافلة للمسلمين في بلاد الشام، وشنقوا تسعة عشر من التجار المسلمين، ونهبوا بعض البلدان الإسلامية,وسرعان ما سقطت بعدئذ في أيدي المسلمين مدائن صور، وصيدا، وحيفا، وبيروت، وظل بعض المغامرين أو المتحمسين قرنين من الزمان يقدمون على محاولات متقطعة، ولكن أوربا أدركت أن الحروب الصليبية قد انقضى أجلها .

وكان حماس القائد بيبرس في جهاد الصليبين لم يخلوا عام من الأعوام العشرة ما بين 1261- 1271م/659-669 هـ إلا وكان يشن فيه حربا، ويسترد أرضا من أرض إحدى الإمارات الباقية بأيديهم وهي: أنطاكية، وطرابلس، وبعض مملكة القدس , فبادر عام 1263م/661 هـ بمهاجمة مدينة الناصرة، ثم هاجم بنفسه مدينة عكا الحصينة، ولكنه لم يتمكن أن فتحها بسبب ما أقامه فيها لويس التاسع من تحصينات.

وفي عام 1265م/ 663 هـ حاصر مدينة قيسارية وفتحها رغم حصانتها ، ثم غادرها جنوبا إلى قلعة أرسوف البحرية التي كَانت تحت سيطرة شرسان الاسبتارية المشهورين ببسالتهم، فقاموا بالدفاع المستميت عنها، ولم يمكنوا بيبرس من فتحها فلجأ إلى الحيلة بأن اتفق معهم على أن يستسلموا مقابل تأملات حياتهم، ولكنه قام بنقلهم إلى القاهرة بعد أن أمرهم بهدم قلعتهم .

وبعد ذلك قام بفتح يافا وعتليت، ثم استولى في العام التالي على صفد وهونين وتبنين والرملة مما جعل الإمارات الصليبية في حالة احتضار يائسة دفعتها إلى معاودة استعطاف السلطان بيبرس طالبة مصالحته، أو على الأقل عقد هدنة معه، ومن أطرف هذه الاتفاقيات بين بيبرس والإمارات الصليبية تلك الاتفاقية التي عقدتها معه ازابيلا، ملكة بيروت عام 1268م/ 667 هـ ومدتها عشر سنوات، وكانت هذه الملكة قد وثقت ببيبرس إلى درجة أنها كانت عندما ترغب حب السفر إلى جهة ما، تذهب بنفسها إلى بيبرس وتستودعه بلادها ، وعندما خطفها الملك هيو الثالث ملك جزيرة قبرص قام بيبرس بتخليصها عن طريق توجيه تهديدات لهيو. لهذا اتخذت لنفسها حرسا من المماليك حتى ماتت عام 1274م /672 هـ .

((المحاضرة العاشرة))

ظهور المغول

انقسمت القبائل المغولية من حيث تقسيم العمل إلى قسمين في اوخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي, الأولى قبائل رعاة في المراعي و الثانية قبائل يصدون السمك في الأنهار ويصدون الحيوانات في البراري والغابات سواء كانت حيوانات ذات فراء في المناطق الثلجية او حيوانات الظباء او حيوانات عادية.

استطع جنكيز خان ضم وتوحيد القبائل تحت لوائه ,وأعلن زعيم للمغول بحدود سنة 1188 م/ 584 هـ بعد عقد مجلس القبيلة القوريلتاي.

يرى الذهبي (ت: 748 هـ) اول ظهور للمغول كان سنة599 هـ بقيادة جنكيز خان, وكان ظهوره في ارضي بادية الصبن عندما" هَزمَ جيوش الخطا، واستولى على ممالكهم، ثم على تركستان وَإِقْلِيْمِ مَا وَرَاءِ النَّهْرِ ثُمَّ إِقْلِيْمِ خُرَاسَانَ وَبِلاَدِ الجبلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَذعَنَتْ بطَاعتِهِ جَمِيْعُ التَّتَارِ، وَأَطَاعُوْهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَتقيَّدُ بدينِ

الإِسْلاَمِ وَلاَ بِغَيْرِهِ، وَقَتْلُ المُسْلِمِ أَهـوَنُ عِنْدَهُ مِنْ قَتْلِ البُرْغُوثِ، وَلَهُ شَجَاعَةٌ مُفْرِطَةٌ وَعَقلٌ وَافرٌ وَدَهَاءٌ وَمَكر" .

وعندما ظهر المغول في تلك المنطقة بدأت تجاوزاتها على الصين مما اضطر الإمبراطور الصيني تانغ الى بناء سور عظيم سمي بسور الصين الذي امتد على طول الحدود المنغولية ,وأنشأت على طول هذا السور مستوطنات عسكرية وحشد لها ألاف الجنود من اجل إيقاف هذا التمدد ,والحفاظ على مصالح الصين.

وفي سنة1206 م/ 603 هـ سيطر جنكيز خان على معظم الشطر الغربي من منغوليا واتخذ لقب الخان الأعظم وكتسب شرعية السلطة و اتخذ علم لجيشه وقد رسم القمر فيه وفي ذيله تسعة فرسان بيض ورسم عليه اللواء والقمر.

هاجم المغول بقيادة جنكيز خان مملكة التانغوت، أو مملكة سي . هيا , اوهيسا في التبت , وتم الاستلاء عليها ، فبإستيلائه على هذه المملكة يستطيع ان يتحكم بطريق المار بين الصين و تركستان ويحاصر من جهة الغرب مملكة كين، العدو التقليدي للمغول , "قام جنكيز خان بثلاث غزوات ضد مملكة التانغوت في السنوات 602هـ / 1205م، 604هـ /1207م، 606هـ / 1209م واستولاء على جميع أراضيها ولكنه لم يصل الى عاصمتها ننج . هسيا التي حاصرها طويلاً، ولم يفك عنها الحصار إلا بعد أن وافق عاهلها على القبول بالسيادة المغولية على أراضيه عام 606هـ / 1209م، ودفع الجزية لجنكيز خان، وبذلك أصبح جنكيز خان سيد مملكة التانغوت، أي إقليم كانسو الصيني الحالي، وسهوب أوردوس وألدشان التي كانت تعتبر منطقة حدودية مع الصين، فكان على القائد المغولي، إذا ما أراد أن يتخذ لنفسه موطئ قدم في أراضي الصين أن يهاجم مملكة كين التي كانت تتبع لها بعض طوائف الترك والمغول" .

توسع المغول

يشير ابن الأثير الى ان التتار قد ظهر في سنة 604هـ وخرجوا من بلادهم من حدود الصين قديما ونزلوا وراء بلاد تركستان، "وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب فلما سمعوا بما فعله خوارزم شاه بالخطا قصدوهم مع ملكهم كشلي خان فلما رأى ملك الخطا ذلك أرسل إلى خوارزم شاه يقول له أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفو عنه وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به وإنهم إن انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم

ونحن نحلف لك أننا إذا ظفرنا بهم لا نتعرض إلى ما أخذت من البلاد ونقنع بما في أيدينا, وأرسل إليه كشلي خان ملك التتار يقول إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا فساعدنا عليهم ونحلف أننا إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك ونقنع بالمواضع التي ينزلونها فأجاب كلا منهما أنني معك ومعا ضدك على خصمك وسار بعساكره إلى أن نزل قريبا من الموضع الذي تصافوا فيه فلم يخالطهم مخالطة يعلم بها أنه من أحدهما فكانت كل طائفة منهم تظن أنه معها وتوقع الخطا والتتار ذلك, فانهزم الخطا هزيمة عظيمة فمال حينئذ خوارزم شاه وجعل يقتل ويأسر وينهب ولم يترك احدا ينجو منهم فلم يسلم منهم إلا طائفة يسيره مع ملكهم في موضع من نواحي الترك يحيط به جبال ليس إليه طريق إلا من جهة واحدة تحصنوا فيه وانضم إلى خوارزم شاه منهم طائفة وساروا في عسكره وأنفذ خوارزم شاه إلى كشلي خان ملك التتار يمن عليه بأنه حضر لمساعدته ولولاه ما تمكن من الخطا فاعترف له كشلي خان بذلك مدة ثم ارسل إليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا وقال كما انا اتفقنا على ابادتهم ينبغي أن نقسم بلادهم فقال ليس لك عندي غير السيف ولستم بأقوى من الخطا شوكة ولا اعز ملكا فإن قنعت بالمساكنة وإلا سرت إليك وفعلت بك شرا مما فعلت بهم ".

ونلاحظ من ذلك ان المغول لا عهود لهم ولا مواثيق وكان على الخليفة العباسي المستعصم بالله (640 هـ/ 656 هـ) ان يتنبأ من كل تلك العهود التي أبرمت بين المغول وبين الدول التي احتلتها امثال الدولة الخوارزمية ودولة الخطا والنايمان .

ولابد من القول ان سيد قطز قائد معركة عين جالوت سنة 658 هـ قد استفاد من دروس المعارك ولم يستجب لرسل الذي أرسلهم له هولاكو الى بلاد الشام.

بعد كل ذلك بدء جنكيز خان يعد العدة لتقدم صوب البلاد المجاورة بعد ان اتخذ عاصمة جديدة له وهي قراقوم, اذ تقدم الى الصين سنة 1211 م/ 608 هـ أي بلاد الى ما وراء سور الصين العظيم وأخضعها له ,ثم واصلو الزحف نحو بكين واستطاع جنكيز خان ان يسقطها سنة 1215 م/ 612 هـ, وبذلك أعطي دفعة معنويه للمغول بتقدم نحو المدن الأخرى.

عاد جنكيز خان الى منغوليا لترتيب أوضاعه العسكرية والاقتصادية ,ثم تقدم من منغوليا نحو الغرب باتجاه قبائل النايمان, وبعد معارك ضارية بين جنكيز خان وبين ملكهم تايانك خان قتل الملك تايانك وفر ابنه كوجلك خان خارج بلده مع أعدادا كثيرة من جنودهم إلى الدولة القره خطائية واعتقل من قبل الجيش القره خطائي , ثم أطلق سرحه بعد فترة , وفي هذه الإثناء حدث خلاف بين الخوارزميين وبين كوجلك

خان الفار من ضغط المغول إلى الدولة القره خطائية بسبب عدم دفع الجزية المتفق عليها من قبل الخوارزميين الى كوجلك خان , وهنا لعب كوجلك خان دوراً رئيساً في أقناع قادة الدولة القراخطائية باستطاعة كوجلك ان يجلب المال من الدولة الخوارزمية ,اذ مد بالمال والسلاح من قبل القره خطائيين كي يسقط الدولة الخوارزمية, وبدل من يتقدم كوجلك خان صوب الدولة الخوارزمية اتفق مع علاء الدين محمد خوارزم شاه على إسقاط الدولة القره خطائية سنة 1211 م/ 608, وقتل ملكهم كورك خان وتزوج ابنته التي اقنعته بترك الديانة النصرانية واعتناق الديانة البوذية التي كانت عليها هي ,وانقسمت الدولة القره خطائية الى نصفين نصف له ونصف لعلاء الدين محمد خوارزم شاة وقد التحق توق خان رئيس قبيلة المركيت الفار من ضغط جنكيز خان بكوجلك خان وكون دولة قوية.

وبذلك تجمع المعادين لجنكيزخان كل من قبائل النايمان وقبائل المركيت والدولة الخوارزمية في هذه البقعة, وكان على جنكيز خان ان يوجه ضربة قويه كي يتخلص من أقوى أعداءه.

وهنا عامل كوجلك خان صاحب الديانة البوذية الجديدة المسلمين معاملة قاسية جدا اذ طلب من المسلمين ترك الإسلام وان يصبحوا اما نصرانيين او بوذيين او يرتدوا الزى القرخطائي, ومنع رفع الأذان وهدمت المساجد.

لم يكن جنكيزخان غافل عن هذا التجمع لاسيما وان جنكيز خان قاتل ابي كوجلك خان الذي بدء يجمع الجموع للانتقام من قاتل ابيه , اذ كان جنكيز خان قد لهته فتره ليس بالقليلة احتلال الصين وما ان تفرغ من بلاد الصين حتى جهز جيش قوي بقيادة جبه نوبان وتوجه الى مدينة كاشغر التي ذاقها كوجلك خان المر والهون والذل واستطاع الدخول اليها, ويذكر ان القائد الاسلامي قتيبة بن مسلم الباهلي هو الذي نشر الاسلام فيها , وبعد دخول جيش المغولي الى كشغر هرب كوجلك خان, وقد تم اعتقاله من بعض الصيادين وسلموه الى المغول فقتل سنة 1218 م/ 615 هـ, وتعقب المغول قائد المركيت توق خان الهارب من المغول عند دخولهم الى قبائل المركيت وتم قتلوه ,وبذلك اصبحت كل ممتلكات الدولة القره خطائية تحت سيطرة المغول,ولم يكن بينها وبين الخلافة العباسية سواء الدولة الخوارزمية.

تقدم المغول نحو الدولة الخوارزمية و إسقاطها

يرجع اصل الدولة الخوارزمية الى منطقة خوارزم, وكانت تابعة لحكم السلاجقة ,اذ عين في عهد السلطان الب ارسلان 465 هـ- 485 هـ السلجوقي سنة 470 هـ

النائب انوشتكين على مدينة خوارزم وكان تابع للسلطان السلجوقي, وكان يتمر بأمر السلطان السلجوقي وعندما ضعفت السلاجقة سنة 490 هـ نصب نفسه سلطانا على إقليم خوارزم, لاسيما وان هذا التاريخ يذكرنا بان الحملة الصليبية الاولى على البلدان الإسلامية على أبواب فستغل انوشتكين هذه الظرف ونصب نفسه سلطانا.

وفي سنة 538 هـ اخفق السلطان السلجوقي سننجر513 -552 هـ في القضاء على السلطان الخوارزمي اتسن ليعلن نفسه سلطانا مستقلا على الدولة الخوارزمية وليصبح له كيان مستقل استقلالا تاما عن السلاجقة, اذ راسل الخليفة المتقي لامر الله 532 -555 هـ وطلب منه يوليه خوارزم مقابل الولاء للخلافة العباسية واعلن الخليفة موافقته وارسل له الخلع والتشريفات ,وبذلك كسب تأييد الخليفة اولا وصبح له طابع شرعي في الحكم .

اذ لم يكتفي السلطان الخوارزمي بإعلان نفسه سلطانا بل بداء يتوسع على حساب أسياده القدامى,وعندما توفى السلطان السلجوقي سنجر 552 هـ/1157م دخلت كل ممتلكات السلاجقة في فارس وخراسان تحت الدولة الخوارزمية.

وعندما وصل الى سدة الحكم السلطان الخوارزمي تكش 568 هـ – 596 هـ/ 1172- 1199 م تعاون الخليفة الناصر لدين الله معه للقضاء على السلاجقة وبالفعل انتهى امر السلاجقة في العراق سنة 590 هـ لتحل محلهم الدولة الخوارزمية, اذ ان تكش أُغر بنفسه وحاول ان يكون بدلاً من السلاجقة في بغداد , وطلب من الخليفة العباسي ان يحدد له دار السلطنة السلجوقية في بغداد ليستقر فيها اذا دخل بغداد الا ان الخليفة العباسي الناصر لدين الله هدم دار السلطنة السلجوقية من اساسها لينهي أي امل للخوارزميين بدخولهم بغداد, وبذلك تكون بغداد قد دخلت في صراع جديد مع الدولة الخوارزمية,لاسيما وان الخلافة العباسية على ابواب تصارع حملات صليبية غربية واسعة النطاق.

وقد اتسمت العلاقات بين الدولة الخوارزمية والدولة القره خطائية بالعلاقات الجيدة في عهد السلطان الخوارزمي علاء الدين محمد خوارزم شاه 596 هـ- 617 هـ/ 1199 م- 1219 م لاسيما وان الدولة القره خطائية كانت تقف سدا لكل التجاوزات المغولية ضد الدولة الخوارزمية بفعل موقعها الجغرافي.

وبمقتل كوجلك خان سنة 615 هـ/1217 م وسقوط الدولة القره خطائية على يد المغول أصبحت الدولة الخوارزمية الجار الفعلي للمغول ,وبذلك اصبحت قريبة جدا من مرمى المغول,الا ان الدولة الخوارزمية بقيادة السلطان علاء الدين محمد خوارزم

شاه كانت عينه على عاصمة الخلافة العباسية بغداد وحاول احتلالها قدر المستطاع,الا ان قوة الخليفة الناصر لدين الله منعته من الوصل الى بغداد.

والظاهر ان الخليفة العباسي الناصر لدين الله قد وقع في خطأ فادح عندما اعتمد وساعد الخوارزميين في القضاء على السلاجقة , والسبب لان بعد فترة وجيز جدا طالب الخوارزميين بنفس الالتزامات التي كانت تمنح للسلاجقة من قبل الخليفة العباسي .

والغريب ان بعد سقوط الدولة القره خطائية صمم قادة الدولة الخوارزمية باحتلال عاصمة الخلافة العباسية بغداد تدفعه بعض الأسباب منها:

1 - كان من أولويات السلطان الخوارزمي ان يجعل الخليفة العباسي يأتمر بأمره في الصغيرة والكبيرة ,ان لم يستطع احتلاله وتحويله تابع له .

2 – رفض الخليفة العباسي الهدايا المقدمة من قبل السلطان الخوارزمي محمد خوارزم , وقبل بالمقابل الهدايا التي وصلت اليه من قبل جلال الدين حسن الاسماعيلي المشهور بـ(نوسلمان) وهو من خلفاء الحسن الصباح المقدم على الإسماعيلية,وبذلك أشيع ان الخليفة العباسي يحتقر الخوارزميين.

3 –عندما احتل الخوارزميين غزنة عاصمة الدولة الغورية سنة 1214 م/ 611 هـ وجد فيها رسائل من الخليفة العباسي يحث الغوريين على مهاجمة الخوارزميين .

4 – اتضح للسلطان الخوارزمي بان الخليفة العباسي حرض الدولة القره خطائية وتابكة فارس واذربيجان ضده ,كما تحالف مع الإسماعيلية ضد الدولة الخوارزمية.

5 – في نظر السلطان الخوارزمي ان الخليفة العباسي تقاعس عن الجهاد , وان السلطان الخوارزمي هو المنقذ للجهاد.

6 – الاختلاف المذهبي بين الخليفة العباسي والسلطان الخوارزمي اذ كان الخليفة على المذهب الحنفي وكان السلطان على المذهب العلوي.

وحاول السلطان الخوارزمي سنة 1217 م/ 614 هـ التقدم صوب بغداد واحتلالها , الا ان الخليفة العباسي امر سعد بن زنكي امير الاتابكة بالتصدي لخوارزم شاه الا انه اندحر امام جيش خوارزم شاه , ولم يصمد اوزبك بن بهلول امير اتابكة اذربيجان امام الجيش الخوارزمي ايضا.

تقدم خوارزم شاه نحو بغداد وحاول الخليفة العباسي ان يهادنه وأرسل له الشيخ شهاب الدين السهروردي لطلب الصلح منه الا انه رفض عرض الخليفة وصمم على

دخول بغداد,ثم دخل عن طريق همدان في فصل الخريف وعند وصله الى اسد اباد هبت عليهم عاصفة ثلجية اهلكت جيش الخوارزمي.

وقال ان الخليفة الناصر لدين الله بعد هذه الحادثة هو الذي دعي المغول الى بغداد وايد هذه المقولة ابن الاثير(ت:630 هـ) اذ قال :"ان ما ينسبها لعجم اليه صحيحا من انه هو الذي اطمع التتار في بلاد وراسلهم فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم "

وهنا لابد من القول ان ربما ابن الاثير كان له عداء مع الخليفة او ربما وصلته معلومة مغلوطة, لان عند متابعة بعض المؤلفات المعاصرة للمغول لا يذكر هذه الحادثة امثال " النسوي، وسبط ابن الجوزي، وابن شداد، وأبي شامة، ويليهم ابن واصل، واليونيني، وابن طباطبا، ولا نغفل أن المؤرخين الصينيين الذين رافقوا حملة جنكيز خان وأولاده وأرخوا لهم تاريخهم، لم تكن مدوناتهم مجهولة للمؤرخين المسلمين الذين خدموا المغول فيما بعد".

وبذلك يكون محمد خوارزم قد وقع في خطاء كبير جدا فهو قضاء على الدولة القره خطائية والدولة الغورية واصبح له عداء كبير بين الخلافة العباسية والخوارزميين بعد الاعتداء الأخير,وفي نهاية المطاف سوف يواجهون المغول وحدهما, بعد ان دمرت كل الحواجز التي كانت تعيق تقدم المغول نحو الدولة الإسلامية.

استمرت العلاقات التجارية بين الدولة الخوارزمية والمغول على مستوى عالي من الحيطة والحذر , اذ ارسلت الدولة الخوارزمية ثلاثة تجار الى المغول وقد اكرمهم المغول وسهل عملهم وعلى اثر ذلك ارسل المغول 450 تاجر اغلبهم من المسلمين وارسل جنكيز خان رسالة مع احد التجار جاء فيها"ان التجار وصلوا إلينا وقد اعدناهم الى مأمنهم سالمين غانمين وقد سيّرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من ظرائف تلك الأطراف فينبغي ان يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين وتنحسم موادّ النفاق من ذات البين".

وصل التجار الى مدينة اترار الحدودية التابعة للدولة الخوارزمية والتي عليها احد اقارب السلطان الخوارزمي والذي يعرف ينال خان, وكان بوصف بالطمع العالي والجشع ,فطمع في ماتحمله القافلة من تحف وهدايا واموال وقام بالاستيلاء عليها وقتل التجار وتهمهم بالتجسس لصالح جنكيز خان , ولم ينجي من القتل الا تاجر واحد هرب من السجن ليكن الشاهد الوحيد على المجزرة ونقل هذه الشاهد الى جنكيز خان.

علم جنكيز خان بما حدث للتجار من سلب ونهب وقتل, فارسل رسالة الى السلطان الخوارزمي جاء في مضمونها "إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار،، ولا تتعرض إلى أحد منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فإذا كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان إليَّ لأجازيه على ما فعل، حقناً للدماء، وتسكيناً للدماء، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح، وتتعضد معها عوامل الرماح" ,وعندما وصلت الرسالة مع رسولين قتل خوارزم شاه احدهما وأطلق الاخر استهانة بخوارزم شاه .

وهنا اصبحت ابواب الحرب قريبة جداً بفعل افعال السلطان الخوارزمي, وبدء جنكيز خان يستعد لخوض المعركة الفاصلة بين المغول وبين الدولة الخوارزمية لاسيما وان شعب المغول مهيأ تهيئة عسكرية وسياسية بفعل افعال الدولة الخوارزمية اتجاه التجار.

تقدم جنكيز خان صوب الدولة الخوارزمية باربعة جيوش عين على ثلاثة جيوش اولاده وهو على الجيش الرابع,كان هدف الجيش المغولي اولاً هو مدينة اترار وكان السبب في ذلك هو:-

1 ـ لأخذ ثار التجار الذي اعدموا في تلك المدينة.

2 ـ هي مدينة حدودية بين المغول وبين الدولة الخوارزمية.

3 – نتائج المعركة محسومة لصالح المغول بفعل الحماس بين افراد الجيش المغولي.

4 – ارد جنكيز خان تحويل النصر من اترار الى كافة انحاء الدولة الخوارزمية .

استمر الحصار خمسة اشهر قاوم فيها حاميات مدينة اترار مقاومة باسلة دخل على اثرها المغول الى مدينة اترار والم ينج من اهل احد,وقد وقع ينال خان اسير بيد المغول وجاء بيه الى جنكيز خان وامر بان تصهر الفضة وتصب في عينيه واذنه وفمه ,وتعرضت المدينة للحرق والتدمير بشكل كامل.

وكان الجيش المغولي الثاني بقيادة جوجي بن جنكيز خان يحاصر مدينة جند,وهذه المدينة من اهم المدن الخوارزمية, وعندما اقترب منها المغول اصاب الجيش الخوارزمية الذعر والخوف فغادر المدينة وتركوا اهلها يواجهون مصيرهم وحدهم ,ونقسم اهلها بين مؤيد ومعارض للمغول, وبعد حصار شديد دخل المغول هذه المدينة,ولم يكن حال هذه المدينة اسعد من مدينة اترار.

اما الجيش الثالث فحاصر مدينة بناكث وخجند وفتحت بعد ثلاثة ايام بعد حصار شديد عليها

اما الجيش الرابع بقيادة جنكيز خان نفسه الى مدينة بخارى , وبعد ان اقترب من المدينة خرج اهلها يطالبون بالصلح , فوافق المغول على الصلح وفتحت المدينة امام المغول ودخل جنكيز خان المدينة ولم تكن اسعد حال من اترار وخجندة والمدن الاخرى التي احتلها المغول فبدء السلب والنهب والحرق والقتل في المدينة حتى ان جنكيز خان قال "وقد حمل المغول إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوي نسخاً كثيراً من القرآن الكريم وقعت تحت حوافر الخيل، كما أهان المغول الدين الإسلامي، بإحضارهم قرب الخمر إلى المسجد، كما أحضروا المغنيين من المدن المختلفة، وأخذوا يشربون ويطربون، وأعيان البلد وكبار الأئمة يقومون بخدمة الجند في مجالس الشراب أو يؤدون لهم الرقصات وفق رسم المغول على توقيع الآلات الموسيقية".

وقد احرق القلعة بالكامل لاسيما وان القلعة مبنية من الخشب سريع الاشتعال, حتى ان ابن الاثير(ت: 630 هـ) وصفها وقال عنها"كان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدي سبا وتمزقوا كل ممزق واقتسموا النساء أيضا وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس وارتكبوا من النساء العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً مما نزل بهم فمنعهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل - - -, واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الإمام ركن الدين إمام زاده وولده فإنهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا وكذلك فعل القاضي صدر الدين خان ومن استسلم أخذ أسيرا وألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بأنواع العذاب من طلب المال ثم رحلوا نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزم شاه عنهم وهم بمكانه بين ترمذ وبلخ و استصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى أسارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة فكل من أعيا وعجز عن المشي قتل " .

وقد تقدم خنكيز خان صوب سمرقند عاصمة الدولة الخوارزمية ومعه أسرى بخارى يستخدمهم دروع بشريه امام جنوده كي يتلقون الضربات الأولى ودارت معركة اذ طلب اهل سمرقند الصلح من جنكيز خان فوافق على الصلح ودخل مدينو سمرقند سنة 1220 م/ 617 هـ وجمع والاموال والاحيوانات وشعلوا فيها النار,وبسقوط هذه المدن اصبح الطريق ممهد الى خراسان.

عبر الجبش المغولي نهر جبحون سنة 1220م/ 617 هـ وكان هدفه الاول القبض على خوارزم شاه والاستيلاء على مدينة بلخ وكان نصيبها من الحرق والسب والنهب لا يقل على المدن سالفات الذكر , وهرب خورزم شاه امامهم على الرغم من جيشه الذي كان يبلغ في تلك المدن 300000 الف جندي ولكن اصابهم الخف والهوان.

بدأت المدن الخوارزمية تسقط الواحدة تلو الأخرى ، فسقطت مازندران ثم الري وهَمَذَان ثم زَنْجان ثم قَزْوِين ثم أَذْرَبِيجان وتوجهت القوات المغولية نحو الجرجانية ثم مرو ونيسابور و استولى التتار على جميع أراضي الخوارزميين في بلاد ماوراء النهر.

وهنا عاد جنكيز خان الى منغوليا وتوفي سنة 1227 م/ 624 هـ, وقد قسم ابنائه دولته بينهم ,وبقي منصبه خالي سنتين واجتمع المغول واختار خان جديد وهو مكوخان.

أما السلطان خوارزم شاة فإنه هرب من بلاده ، وأرسل جنكيزخان قبل وفاتها وراءه ثلاثة من كبار قواده على رأس عشرين أو ثلاثين ألف مقاتل ، وأمرهم أن يحضروه حياً أو ميتاً قال : أدركوه ولو تعلق بالسماء ولكن هرب.

وقد لحق المغول السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي, اذ قتل على يد احد الاكراد سنة 1231 م/ 628 هـ.

وبمقتل السلطان انتهي اخر امل لقيام الدولة الخوارزمية مرة ثانية ,واصبح المغول وجه لوجه امام الخلافة العباسية.

تقدم المغول نحو العراق واسقاط عاصمة الخلافة بغداد

تقدم المغول بجيشه بثلاثة اتجهات , الجيش الاول تقدم نحو ديار بكر وارزان والروم وميافارقين وماردين ونصبين وسنجار وتقدم حتى وصل ساحل الفرات, وامعنوا بتلك المناطق بالسلب والنهب والحرق ,وقد وصفهم ابن الاثير (ت:630 هـ) وقال " حكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي القاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم حتى قيل ان الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد لا يتجاسر احد يمد يده الى ذلك الفارس ولقد بلغني ان انسانا منهم اخذ رجلا ولم يكن مع التتري ما يقتله به فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح فوضع رأسه على الأرض ومضى

التتري واحضر سيفا فقتله به ,وحكى لي رجل قال كنت انا ومعي سبعة عشر رجلا في طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضا فشرع اصحابي يفعلون ما أمرهم فقلت لهم هذا واحد فلما لا نقتله ونهرب فقالوا نخاف فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا فوالله ما جسر احد يفعل ذلك فأخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا " .

اما الجيش الثاني فقد قصد مدينة بدليس ودخلها الجيش المغولي وحرقها واستولى على بعض القلاع, اما الجيش الثالث فتوجه الى اذربيجان وشرع بدخولها ودخول المدن الاخرى قلعة بعد قلعة ودخل تبريز سنة 629 هـ , وساند اهالي اذربيجان المغول وغدر بقادة الدولة الخوارزمية وقتلوهم من اجل التقرب من المغول وراسلوا المغول ووفقوا على تصرفاتهم مقبال الامان لهم , ودخل المغول بلادهم,ولكن عندما دخل المغول كعادتهم مارسوا السلب والنهب والحرق والقتل دون ان تاخذهم رافة بهم ضاربين عرض الحائط كل الاتفاقات والمواثيق التي جراءت بينهما قبل الدخول مناطقهم.

بعد القضاء على الدولة الخوارزمية اصبح المغول جنب الى جنب مع الخلافة العباسية, بدأت تجاوزات المغول على حدود الخلافة العباسية من جهة الشرق والشمال , في سنة 632 هـ / 633 هـ هاجم المغول قلعة اربل ودخلها المغول, وسارع اهاليه ودخلوا القلعة وحصرها المغول اربعين يوما وفتدي اهلها بفدية دفعت الى المغول وانسحب المغول بعد ان علم بوصل امدادت من بغداد, وتعرض الجيش العباسي سنة 634 هـ/1236 م الى هجوم مغولي على اطراف مدينة سامراء واستطاع الجيش العباسي" أن يهزم المغول بالقرب من تكريت ما بين دجلة وجبل حَمْرَين وأن يفك أسر عدد كبير من المسلمين كانوا قد وقعوا في أيدي المغول أثناء قتالهم في إربل ,وعاد المغول الكرة وقصدوا بغداد عام 635 هـ/ 1237 م حيث هزموا المسلمين في خانقين، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعاد الباقون إلى بغداد، واستمر المغول في مهاجماتهم لجورجيا وأرمينية ودمروا وخرّبوا" .

عندما صمم هولاكو مهاجمة الاسماعلية في بلاد فارس طلب من الخليفة العباسي ان يمده بجيش للقضاء على الاسماعلية ,فلما شاور الخليفة اتباعة حذروه من القدوم على هذا العمل ,وادخلو الخليفة في روعة ان هولاكو يريد ان يفرغ بغداد من الجيش ,وبذلك يسهل دخوله بغداد دون أي مشقة تذكر وامتنع الخليفة عن ذلك .

ودارت رسائل بين هولاكو وبين الخليفة العباسي المستعصم بالله ,اذ ارسل هولاكو رسالة الى الخليفة المستعصم بالله يهدد ويتوعد فيها الخليفة تهديدا صريحا اذ قال

" لابد انه قد وصل الى سمعك على لسان الخاصة والعام ما حدث للعالم على ايدي الجيوش المغولية منذ عهد جنكيزخان وعلمت اية مذلة لحقت بامر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والاتابكة وغيرهم ممن كانوا ارباب العظمة واصحاب الشوكة , ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه اية طائفة من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة , فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان ؟ وقد نصحناك قبل هذا --- فعليك ان تهدم الحصون وتطم الخنادق , وتسلم ابنك المملكة , ثم تتوجه لمقابلتنا , وان كنت لاتريد ذلك فارسل الينا الوزير وسليمان شاه والدوندار, ليوصلوا رسالتنا اليك بغير زيادة او نقصان --- فاذا اردت ان تحفظ راسك واسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء , والا فسارى كيف تكون قدرة الله" .

فرد الخليفة المستعصم بالله(640 هـ- 656 هـ) على هولاكو بنفس الوتيرة من الوعيد والتهديد اذ قال"ايها الشاب الحدث ؟ الذي لم يخبر الايام بعد, والذي ينتمي الى قصر العمر, والذي اغرته اقبال الايام ومساعدة الظروف , فتخيل نفسه مسيطرا على العالم ,--- الا يعلم الامير ان من الشرق الى الغرب --- كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي --- فان كنت مثلي تزرع بذور المحبة,فما شانك بخنادق رعيتي وحصونهم --- اسلك طريق الواد وعد الى خراسان , وان كنت تريد الحرب والقتال ,فلا تتوان لحظة والاتتعذر ,فان لي الوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة هم على اهبة الاستعداد للقتال "

وضن الخليفة ان اهالي الشام ومصر قد تقف معه في هذا الاعتداء الى قضي على اغلب الدول الاسلامية في الشرق واضعف ماتبقى من دول اسلامية متواجدة في العالم الاسلامي .

وصلت رسالة الخليفة المستعصم بالله الى هولاكو وستشاط غضباً وارسل رسالة اعتبرها انذار نهائيا "لقد فتنك حب الجاه والمال ,والعجب والغرور بالدولة الفانية , بحيث انه لم يعد يؤثر ,فيك نصح الناصحين بالخبر --- فعليك ان تكن مستعدا للحرب والقتال ,فاني متوجه الى بغداد بجيش كالنمل والجراد" .

وبعد كل تلك الرسائل التي دارت بين الخليفة المستعصم بالله وهولاكو تقدم المغول نحو بغداد, فقسم من جيش المغول سلك طريق اربيل الموصل ثم تكريت وقسم توجه عبر طريق السليمانية كركوك باتجاه بغداد وقسم اخر انطلق من الاحواز ,اما هولاكو فقد انطلق من همذان بانجاه بعقوبة ثم ينطلق الى بغداد,وبذلك حصرت بغداد من جميع الاتجاهات , وبدأ التقدم المغولي باتجاه بغداد سنة 656 هـ التي مالبثت ان

ندحرت قوات الخلافة امام ضربات القوات المغولية, واستسلم الخليفة المستعصم بالله للمغول, وقد امنه المغول في بداية الامر , ولكن أي امان امان المغول هل هو امان بخارى ام امان سمرقند التي اعطي لهم الامان ثم حرقت ودمرت بعد دخول المغول لها ,وبعد احتلال بغداد استبيحت اربعين يوما فلم يبق فيها مسجد ولا دار ولا شجرة الا واضرمت فيها النيران كعادة المغول في كل مدينة احتلوها, ودهشت بغداد كل من راها من شدة الحرق والسلب والنهب, وخرجت خزائنها وكانت امولا من الذهب والفضة عظيمة , والقي كتبها في نهر دجلة ليطمس اغلب التراث الاسلامي والعربي المحفوظ في مقر عاصمة الخلافة الاسلامية , حتى قيل ان نهر دجلة تغير لونه وصبح بلون الحبر من كثرة الكتب والمخطوطات النفيسة الملقى فيه, ويقال ان بغداد خسرت اكثر من(800000) فرد من خيرة اهالي بغداد من الرجال والنساء والعلماء والادباء والمفكرين,ونهبت القصور والماذن ,ونهبت ماذنة الامام موسى الكاظم (رض الله عنه), اما الخليفة العباسي فقد وضع في خرارة ورفس حتى مات .

وبذلك يكون عام 1258 م / 656هـ اسوء عام مر على بغداد منذ تاسيسها وحتى دخول المغول.

اسباب سقوط بغداد على يد المغول

هنلك اسباب كثيرة لسقوط عاصمة الخلافة الاسلامية بغداد سنة 656 هـ ومن جملة تلك الاسباب :

1 – كانت الخلافة الاسلامية قبيل حملة هولاكو قد طال عليها الزمن ومرت بتدخلات فارسية واسعة ونفوذ تركي قوي وتسلط بويهي استمر لردهة من الزمن وصاحبها حملات صليبية تجاوزات السبعة حملات وختمت بسطرة سلجوقية استمرت مايقرب القرن والنصف, وعلى هذا الضعف نشأت دول مستقلة في المشرق والمغرب كانت تابعة للدولة العباسية يوما ما , كل تلك الاحداث سارعت الى نهاية الخلافة العباسية .

2 – ظهور الدول في المشرق والمغرب و ظهور التغلغلات والتدخلات الخارجية ساهمت مساهمة فعالة في ضعف الاقتصاد العباسي وبالتالي ساهم في نهاية الخلافة العباسية.

3 – لين وضعف الخليفة العباسي المستعصم بالله سهل بنهاية الخلافة العباسية اذ قال عنه ابن الطباطبا (ت: 709 هـ) :" ;كان رجلا خيّرا متديّنا ليّن الجانب سهل العريكة عفيف اللسان حمل كتاب الله تعالى، وكتب خطّا مليحا وكان سهل الأخلاق، وكان خفيف الوطأة إلّا أنّه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش، قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعا فيه، غير مهيب في النفوس، ولا مطّلع على حقائق الأمور، وكان زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني والتفرّج

على المساخرة، وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة، وكان أصحابه مستولين عليه، وكلّهم جهال من أراذل العوام .

ويقال ان المستعصم بالله راسل"بدر الدين لؤلؤ, صاحب الموصل، يطلب منه جماعة من ذوي الطّرب، وفي تلك الحال وصل رسول السلطان هولاكو إليه، يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار، فقال بدر الدين: انظروا إلى المطلوبين، وابكوا على الإسلام وأهله!"

4 – كانت الاخبار تصل الى الخليفة المستعصم بالله بتقدم المغول نحو بغداد ولم يتخذ أي اجراء عسكري لموجة المغول قبل استفحال خطرهم الجارف الذي جاء من الصين الى ان وصل الى بغداد واسقط دول ومماليك كثيرة , حتى عندما كان يسأل الخليفة عن احتياطاته للمغول يقول "أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا أيضا يهجمون عليّ وأنا بها، وهي بيتي دار مقامي" .

وعلى أي حال فان الخليفة المستعصم بالله كان ضعيفا حتي المغول كان يسمونه بالابله .

5 – لم يكن حكم الخلافة في بغداد مركزيا بيد الخليفة وحده فتارة ينادي بالقضاء على مجاهد الدين ايبك الداوتدر السني المذهب من قبل مؤيد الدين ابن العلقمي الشيعي المذهب والعكس تماما , دون ان يتدخل الخليفية في هذه الامور مما جر الخلافة تجمعات خلف الداوتدر الصغير وتجمعات خلف ابن العلقمي وبالتالي اداء الى ضعف اركان الخلافة ليضيف ركن اخر الى جانب ضعف الخليفة .

6 – لعب العامل الاقتصادي دورا رئيسيا في نهاية الخلافة العباسية لاسيما وان الخلافة اهمالت الرزاعة والسدود وبالتالي سبب في فيضانات كثيرة في بغداد, ويقال ان هنالك سيل ضرب بغداد سنة 654 هـ لدرجة ان البيوت في الطبقات العليا غرقت.

7 – كان اهالي بغداد مقسمين الى يهود ومسيحين ومسلمين,وكانواغير متجانسين وغير متفاهمين يحاول احدهما النيل من الاخر,وقد راسلت اطراف منهم المغول وحثتم على القدوم الى بغداد .

نتائج سقوط بغداد

بعد سقوط بغداد ونهاية الخلافة العباسية على يد المغول سنة 656هـ التي استمرت اكثر من خمسة قرون والتي اجبرت ممالك ومبراطوريات كثيرة بالطاعة لها, حيث كان يصدر الامر يوماً من بغداد الى بلاد ما وراء النهر وبل ويمكن القول ان الخليفة هارون الرشيد خاطب الغمية الحاملة للمطر وكان "مستلقي على قَفاهُ وَينظر الى السحابة الحاملة للمطر وَيَقُول

إذهبي إِلَى حَيْثُ شِئْت يأتيني خراجك" ومن ابز النتائج التي خيمت على اهالي بغداد بعد سقوطها :

1 – تعد بغداد من المراكز المهمة التي يصعب على اي محتل دخولها , عند اذ تفجاء العالم الاسلامي بسقوطها لا سيما وانها تعد مركز ديني وروحي قبل ان تكون عاصمة للخلافة الاسلامية لجميع المسلمين ,وعلى الرغم من فقدان موقعها المالي منذ فترة ليس بالقليلة الانها تمثل مركز ادبي وروحي للمسلمين .

2 – عنف وبطش المغول للاهالي جعل اهل بغداد يغادرونها الى المناطق المجاورة لاسيما العامة منهم.

3 – اصبحت بغداد شبه فارغة من النشاط العلمي بعد قتل عدد كبير من العلماء والمفكرين على يد المغول وحرق ورمي اغلب المخطوطات في نهر دجلة وهدم دور العبادة والمدارس وقضي على الاثار وخربت المباني وغيرها من الامور الكثيرة جدا.

4 – وبعد ان قضي على اغلب العلماء والادباء والشعراء وهرب الباقي الى الخارج , انحسرت نفوذ اللغة العربية وحلت محلها اللغة الفارسية .

5 – تشجع الغرب في خوض معارك صليبية جديدة ضد العالم الاسلامي بصورة عامة وضد العالم العربي بصورة خاصة لاسيما الحملة الصليبية السابعة سنة 648 هـ والتي كانت فيها قد ضعفت الخلافة العباسية نوعا ما والحملة الصليبية الثامنة سنة 668 هـ.

6 – اثر سقوط بغداد على العالم المسيحي اذ فرح المسيحين فرحاً شديداً لاسيما وان زرجة هولاكو مسيحية الديانة واعتبر دخولهم بغداد نصرا للمسيحية .

7 – افراغ العالم الاسلامي من اي سلطان او خليفة مسلم بعد مقتل الخليفة المستعصم بالله, لذا حاول السلطان المملوكي القائد الظاهر بيبرس سنه 659 هـ البحث عن فرد من الاسرة العباسية وتنصبة على مصر اذ " احضر شخص من أولاد الخلفاء الفارين في الواقعة إلى عرب العراق ومعه عشرة من بني مهارش فركب الظاهر للقائه ومعه القضاة وأهل الدولة فأثبت نسبه على يد قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ثم بويع بالخلافة فبايعه السلطان وقاضي القضاة والشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم الكبار على مراتبهم ولقب بالمستنصر"

تقدم المغول نحو الشام ومصر وحدوث معركة عين جالوت.

بعد ان استكمل هولاكو احتلال مقر الخلافة العباسية بغداد ,وقضي على كل التمردات التي حدثت ضدهم مثل ثورة اربل وثورة الموصل,تقدم المغول سنة 657 هـ نحو الجزيرة الفراتية وحتلوا المدن وحدة تلو الاخرة وساعدهم في ذلك ملك ارمينية هيثوم وملك انطاكية صهر

هيثوم وشارك الارمن والفرنج بكل مايملكون في وصل الصلبيين الى تلك المدن اذ وعد المغول بايعادة بيت المقدس من العرب لهم, لم تقف المدن بوجه المد المغولي الكبير اذ سقطت ميافارقين وديار بكر وحلب وحمص بيد المغول اذ لقيت كل المدن الاسلامية المحتلة من قبل المغول نفس مالقيت بغداد من سلب ونهب وحرق وقتل للشيوخ والاطفال والنساء سواء كانت تلك المدن استسلمت صلحا اوحتلت عنوة , وبعد السيطرة على بلاد الشام قرر هولاكو مهاجمة مصر وفلسطين اذ اول شئ فعله هولاكو راسل الملك المظفر قطز اذ قال له:" يعلم الملك المظفر قطز، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الاقليم يتنعمون بانعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، وأسلموا إلينا امركم، قبل أن ينكف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرفق لمن شكى قد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأي أرض تأويكم وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم، فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا خلاص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتلنا لاتنفع."

وبعد الوعيد والتوعيد من هولاكو جمع الملك المظفر قطز قادة الجيش وسائر الامراء وطلب منهم النصيحة فقسم من قادته ارد الاستسلام وقسم فضل الهروب والقسم الاخر فضل الموجهة , وهناء نبغت عيقرية الملك المظفر اول شئ قتل رسل هولاكو وعلقهم على ابواب القاهرة كي يقطع اى امل للهروب او الاستسلام , ثم سار الملك قطز وفضل ملاقات المغول خارج مصر منطلق من قول الامام على بن ابي طالب (رض الله عنه)" ماغزي قوم في عقر دارهم الاذلوا" وتوجه الملك المظفر الى بلاد الشام و في الطريق تخاذل بعض القادة ثم خطب الملك المظفر قطز هزت كيان الحاضر وابلغ بها الغائب وقال"يَا أُمَرَاء الْمُسلمين لكم زمَان تَأْكُلُونَ أَمْوَال بَيت المَال وَأَنْتُم للغزاة كَارِهُون وَأَنا مُتَوَجّه فَمن اخْتَار الْجِهَاد يصحبني وَمن لم يخْتَر ذَلِك يرجع إِلَى بَيته, فَإِن الله مطلع عَلَيْهِ وخطيئة حَرِيم الْمُسلمين فِي رِقَاب الْمُتَأَخّرين" ,سار الجيش المصري سالك الطريق الرئيسي نحوالشام متلافي طريق الصحراء بع ان اتفق مع بعض الامارات الصليبية هناك عدم مهاجمة الجيوش المصرية[3] .

بدأ الملك المظر بتنظيم جيشه اذ جعل على مقدمة جيشه بيبرس البندقداري , وامره بعدم اجراء أي عمل عسكري دون اخذ موافقته ,تقدم بيبرس باتجاه غزة التي احتلها المغول بقيادة بايدر وشتبك معه الجيش المصري وانتصراً عليه انتصار باهراً وفر الجيش المغولي نحو نهر العاص

شمال الشام, وجن جنون المغولي كتبغا , وتقدم نحو جيش بيبرس ,وعقد مجلس استشاري لكبار قادته , فاشار عليه عدم لقاء الجيش المصري ,وعليه الانتظار حتى ياتيهم المدد من هولاكو المقيم في منغوليا ,الا انك تبغا رفض ذلك العرض وتقدم يسوقة تهوره وكبرياءه وتاريخيه وقوة التي لم تقهر من قبل ,وتخذ طريق بعلبك سالكا طريق الجليل باتجاه وادي الاردن نحو بيبرس , وقد وصلت له اخبار بان اهل الشام ثاروا ضده,فعاد لاخمادهم .

توجه السلطان قطز نحو غور الاردن جاعلا على مقدمةج جيشه القائد بيبرس البندقداري جاعلا خطة عسكرية محكمة ,اذ امر بيبرس ان يشتبك مع المغول في المقدمة ثم ينسحب ظان المغول ان بيبرس قد انهزم ثم يتبعونه بين ابسرعة ليقع بين الكمائن المنصوبة من قبل الملك المضفر قطز عن اليمين وعن الشمال , ونقض عليه بقوة جيش المظفر قطز وفتك فيهم اشد قوة حتى كتب النصر لجيش المظفر قطز ووقع في الاسر كتبغا واعدم بعد ذلك وحز راسه واطاف بين الناس, وكان ذلك في شهر ايلول/ رمضان/ سنة 658 هـ .

وعندما سمع اهل دمشق بالنصر انقض اهالي دمشق على جنود المفول هنالك ومن عاونهم من المسيحين ,وسار الملك قطز حتى دخل دمشق, واصبحت الامارات من الفرات الى حدود مصر تحت حكم المصرين,ولم يطء ارض الملك ارض مصر حتى غدر به وقتل في ذو القعد سنة 658 هـ .